الدكتور محمد شامة

أثر البيئة في ظهور القاديانية

يطلب من : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

صفر سنة ١٤٠٠ هـ — يناير سنة ١٩٨٠ م

دار اسامه للطبع والنشر
جمع آلى - أوفست - تيبو
١٤ عطفة شتات - شارع يعقوب
بالمالية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هـــو الهدى ولئن اتبعت أهوائهم بعـد الذى جـاءك من العلـم ما لك من اللـه من ولى ولا نصـير »

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة :

- تموج المجتمعات البشرية بظواهر فكرية ، متعددة المناهج والأساليب ومختلفة المناحى والاتجاهات ، ومتنوعة الأهداف والاعراض ، ويجىء هذا التباين طبقا لاختلاف العوامل التى ساعدت على ظهور هذه التيارات الفكرية ، فان من المسلم به فى قانون هذا الكون ان كل حدث – وجودا أو عدما – لابد له من سبب ، سواء كان هذا الحدث ماديا حسيا ، أو معنويا مجردا ، فكما أن نوع البذرة وعناصر عضوية التربية ، وطبيعة الطقس عوامل تؤثر فى نوع النبات ، وتكوين براعمه ، وتحديد ثماره ، فان للظواهر الفكرية أيضا تربة ، ومناخا يؤثر فيها ، فتتشكل ، وتتجه طبقا للعوامل التى دفعت الى ظهـــورها وتكوينها .

- ولهذا كان من أهم نقاط منهج المشتغلين بدراسات التيارات الفكرية ، هو البحث عن منابعها ، والكشف عن المؤثرات التى توجهها ، كى يستطيعوا مواجهتها ان كانت – فى نظرهم – ضـــارة بالمجتمع ، أو تدعيمها ان كان وجودها خيرا للفرد والأمـــة .

- ذلك هو اسلوب المصلحين ، والداعين الى سبيل الحـــق فى مواجهة التيارات الفكرية ، ومنهج القائمين على الدراسات

الجامعية ـ اما السرد التاريخى ، الذى هو طابع كثير من الكتب المنشورة فى المجتمعات الاسلامية ، وأسلوب معظم المحاضرات فى مدرجات جامعاتنا ، فلا يصلح الا لمحو أمية الطلبة بالنسبة لأحداث الحركات الفكرية ـ لتخريج دعاة قادرين على المواجهة، أكفاء فى المحاورات والمساجلات الايديولوجية ، لان من لم يدرس التيارات الفكرية دراسة عميقة ، تحولت مواجهته لها الى مماحكات لفظية ، وشقشقات لغوية ، واسلوب يدور فى فراغ فتكون النتيجة أن يتخذ عمله هذا سلاحا ضده ، وخنجرا يغمد فى قلبه ، فيصبح عمله وسيلة ضده ، لا له ، فتنتكس الدعوة الى الله ، ويكون سبب هذا الانتكاس هم الدعاة انفسهم من حيث لا يدرون .

● ولهذا كان منهجى فى هذا البحث محاولة الكشف عن العوامل التى كانت سببا فى ظهور القاديانية ، لتكون مواجهة الدعاة لها قائمة على اساس علمى سليم .

والله أسأل أن يوفق الجميع الى ما فيه خير الاسلام والمسلمين .

انه سميع مجيب .

القاهرة فى ١١ من شعبان سنة ١٣٩٩ هـ
٦ من يوليو سنة ١٩٧٩ م

محمد عبد الغنى شامة

الباب الأول

طبيعة الدين الهندوسى

اطلق اليونانيون فى القرن الرابع قبل الميلاد كلمة : « الهند » على النصف الشرقى من الكرة الارضية ، وكانوا يقصدون بذلك على وجه التحديد : كل ما يقع على الجانب الشرقى لنهر السند (١) بما فى ذلك الصين أيضا ٠ ثم اطلقت فيما بعد ، وقصد بها : الجزء الاوسط من آسيا الواقع بين جبال الهملايا ، والمحيط الهندى ٠ وهو يبدو على هيئة شبه جزيرة ، تشكل مثلثا ، قاعدته فى الشمال ، حيث الصين وأفغانستان ، ورأسه فى الجنوب حيث يفصل بينه وبين جزيرة سيلان مضيق « بولك » وخليج « منار » ويمتد ضلعه الشرقى على خليج البنغال ، والغربى على بحر العرب ٠

وتضم هذه المنطقة المترامية الاطراف بيئات طبيعية مختلفة ، ففيها الجبال الشاهقة ، والوديان العميقة ٠ والصحارى المقفرة ، والغابات الكثيفة والمروج الخصبة ٠ وترتب على هذا اختلاف اجوائها اختلافا شديدا ، ففيها الحرارة الشديدة ، والبرودة القاسية ، والجفاف المميت ، والرطوبة الخانقة ، اذ تجتاحها فى الشتاء رياح جافة من الشمال ، جافة حارة فى الربيع ، ثم رياح شرقية غربية ممطرة مطرا مدمرا ٠

كذلك اختلفت شعوبها اختلافا لا مثيل له فى أى منطقة من

---

(١) اطلق عليه فى السنسكريتية : «Sindhu» ومنها اشتق اليونانيون كلمة « الهند » ٠

مناطق العالم وكثرت لغاتها ، وتباينت لهجاتها تباينا لا نظير له فى أى دولة ، وبناء عليه ، فلا غرابة أن يكون الدين فى الهند نموذجا مختلف الانواع والاشكال ، اذ هو يضم المبادىء السامية بجانب الافكار البدائية ، وكلاهما يسير جنبا الى جنب بصورة قل ان توجد فى منطقة من مناطق العالم غير الهند • فالدين يضم الجليل والردىء البدائى وغير البدائى ، كل هذا بجوار بعضه بطريقة لا توجد فى أى دين آخر ، ففى معبد فخم ــ أقيم فى جنوب الهند على أحدث طراز ــ يقام للاله « شيفا » احتفال دينى رائع حيث تقام الطقوس الدينية ، التى تمجد هذا الاله ، فبينما ينتحى فى هذا الاحتفال زاهد جانبا ، محركا حبات مسبحة باصبعه ، وهو يتمتم بالصيغة المقدسة : «Shiva 'ham, Shiva 'ham» ومعناها : « انا شيفا ، انا شيفا » ويؤكد بذلك ايمانه ــ أى ايمان الزاهد المردد لهذه الكلمات ــ بأنه ــ أى « شيفا ــ سيد العالم » وأن الكهان يعظمونه ، وانه فى الحقيقة اصل هذا الكون ، وان الكل سيعودون اليه •• بينما يفعل الزاهد هذا يوجد على مقربة منه معبد صغير ، يضم تمثالا مزركشا لالهة ، وامامه دمى لنساء يبدو على وجوههن الحزن والكآبة ، والبؤس والشقاء ، والجوع ، والحرمان ، يطلبن ــ متوسلات ــ ان ينجبن اطفالا •

وفى « بنارس » ــ تلك المدينة المقدسة ، التى تماثل العواصم الروحية للأديان الكبرى ــ حيث كتب «Shankara» شانكارا » (١)

---

(١) «Shankara» شـــانكارا » : برهمانى من جنوب الهند (٧٨٨ ــ ٨٢٨ م) ، وفيلسوف متخصص فى النظريات الفلسفية ، التى انبثقت من « الاوبانيشادات » مثل : الاعتقاد بأن أرواح البشر مصدرها (براهما) وأنها ستعود اليه اذا وصلت الى معرفة الله ، او بلغت محبتها لله درجة تمكنها من الانفصال عن عالم البشر ، والاتحاد مع عالم الالوهية ، التى خرجت منه •

تفســـيره لـ «Brahamasutren» (١) ، وحيث موئل العلماء والحكماء حتى اليوم ـ يرى الزائر صورة من المتناقضات الصارخة ، فبينما يلقى العلماء دروسا من « الاوبانيشادات » (٢) أو من « الجيتا » (٣) أو يقصون على المؤمنين أساطير « كرشنا » (٤)،

---

(١) كلمة « سوتر «Sutra» تعنى تعليم ، فالجزء الذى تطلق عليه هذه الكلمة من « الفيدا » يحتوى على كتب تعليمية فى محيط العلوم الستة الخاصة ، وهى : الصوتيات ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والعـــروض والفلك ٠ ويتعلم الكهان هذه العلوم ، لتساعدهم على فهم نصوص « الفيدا » ولتمكنهم من تأدية الطقوس ، التى يتحتم عليهم القيام بها فى تقديم القرابين المقدسة ٠

(٢) تحتوى « الاوبانيشادات » على الأفكار الفلسفيـــة والنظرية ، التى ابدعها الدين الهندوسى ، وهى مؤلفة على طريق السؤال والجواب بين تلميذ هو « شيلا » ، وأستاذ هو «جورو »٠ وتدور تلك المحاورات حول موضوعات هامة مثل : الحقيقة الواقعية والمظاهر الخداعة ، التى لا تمثلها وصدور التعدد عن الواحد ٠ الخ

(٣) «Gitagovinda» جيتـــا جـــوفندا » : من اشهر القصائد الدينية فى الدين الهندوسى ويدور موضوعها حول حب « كريشـــنا » و « رادها » وقد نظمها الشاعر البنجـــالى «Jayadeva» جايا ديفـــا » حـــوالى ١١٠٠ قبـــل الميلاد ، و « جوفندا » اسم للاله « كريشنا » ٠

(٤) «Krishna» كريشـــنا » معنـــاه فى اللغـــة السنسكريتية : « المبهم » يقال انه امير هندى ، زعموا انه اكتسب الصفات الالهية تدريجيا ، وانه المتجسد للمرة الثامنة للاله الهندى « فيشنوا » ، وتحكى الاساطير انه تربى عند احد الرعاة ووقع فى حب فتاة من بناتهم ، كما تروى اعماله البطولية واقاصيص حبه ٠

أو « راما » (١) ، نجد بجانبهم صورة للسلوك التجارى الممقوت ، حيث يتبارى الكهان ، والزهاد ، والتجار فى سلب اموال المتقين الذين جاءوا راغبين فى الزاد الروحى ، وعلى مقربة من هذا يوجد بئر حيث تقدم القرابين لأفعى مقدس ، أو تقام مراسيم التقديس والتعظيم لصورة « جانيشا Ganesha » (٢) متدلية البطن ، ولها رأس فيل ، وفى « كالجات Kalighat » - بالقرب من « كلكتا Kalkutta » - تقدم الضحية

---

(١) « راما Rama » شخصية أسطورية مؤلهة فى الادب الرامى ، الذى ظهر فى عصور الهند القديمة (من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرن الثامن بعد الميلاد) ، وهو - كما تروى الاساطير - ابن « داشاراتا Dasharatha » ، عاش فى المنفى الاختيارى مع زوجته « سيتا Sita » ، بنت « جاناكا Janaka » وقاتل هناك بشجاعة نادرة - الشيطان « رافانا Ravana » ثم رجع الى وطنه ويعتقد الهندوسيون أنه « فيشنو Vishno » تجسد فى صورة انسان ، وأن زوجته « سيتا » هى « لاكشامى Lakshami » زوجة « فيشنو » ، ظهرت فى صورة بشرية ٠

(٢) « جانيشا Ganesha » : من أشهر آلهة الدين الهندوسى فهو - حسب اعتقاد الهندوسيين - ابن « شيفا Shiva » وأمه الآلهة « دورجا Durga » - وقيل ان اسمها : « شاكتى Shakti » - وصفوه أولا بانه اله الزراعة ، ثم اصبح حاميا للثقافة ، والذكاء ٠ رسموا رمزه على هيئة رجل ذى اربع أيد وله رأس فيل ، ممتطيا فأرا بريا ٠ وتتصدر هذه الصورة كثيرا من الكتب الهندية مذيلة ببعض الابيات فى مدحه وتعظيمه ٠

– وهى عبـــارة عن ماعز ينهمـــر منهـــا الدم (تقطر دما) – لـ « Kali كالى » (١) وفى نفس المدينـــة ، وعلى مقربة من هـــذا المـــكان ، يوجـــد معبـــــد « Ramakrishna راما كريشنا » (٢) وهـــو آخـــر القديسين الكبار ، توفى عام ١٨٨٦ م ·

ومما لا شك فيه ان كل فكر دينى يشتمل – فى جميع مراحله

---

(١) « Kali كـــالى » (ومعنـــــاها فى اللغـــة السنسكريتية : السوداء) : احدى النســـاء المؤلهات فى الدين الهندوسى ، وزوجتـــــه « Shiva شيفا » يتخيلها المؤمنون بهذا الدين فى صورة امرأة شريرة ، زائغة البصر ، لها رأس سوداء ، وعشرة أذرع ، تحمل فيها رموز الآلهة ، وقرابينها أضاح يصحب تقديمها – فى الغالب – طقوس مفرطة فى اللهو ·

(٢) « Rama Krishna راما كريشـــــــنا » ولد فى عـــام ١٨٣٤م ، لأب برهمانى – أى رجل دين – قام بالطقوس الدينيةفى معبد « كالى » بالقرب من كلكتا وهو ابن سبعة عشر عاما ، ولما لم يجد فى الصلاة والتأمل مبتغاه ، اتجه الى الفلسفة الدينية الهندية ، ومارس اليوجا ، ثم درس الاديان الاخرى أيضا ولكنه لم يعتنق أيا منها ، بل توصل من هذه الدراسة الى ان الحقيقة الالهية واحدة غير انها ظهرت عند الناس بصور مختلفة – أى ان الطرق مختلفة والهدف واحد وهو تعظيم الله ، وكان هذا الاتجاه سببا فى اعتناق كثير من الاوربيين والامريكيين دعوته فتأسست عام ١٨٩٧م – أى بعد موته بأحد عشر سنة « بعثة تبشيرية » فى كندا تدعو لمبادئه ·

التاريخية – على خليط من السلوك والافكار ، بعضها سام جليل ، والآخر بسيط تبدو عليه احيانا ملامح البدائية ، لان المؤمنين بالدين – أى دين ، بصرف النظر عن درجته بين الاديان مختلفون اختلافا كبيرا فى درجة الثقافة والوعى الفكرى ، ففهم الرجل العادى لقدرة الله ولاوامره ، ونواهيه ، يختلف عن تصور رجل ، قطع شوطا كبيرا فى عالم الثقافة والمعرفة ، أو وصل الى درجة الخلق والابداع فى مجال الفلسفة مثل الغزالى ، وابن سينا ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الخ ٠ ولهذا فتفاوت الافكار الدينية وتباين الصور للمعبود عند المؤمنين بدين واحد ضرورة اقتضاها اختلاف الطبقات الثقافية فى المجتمع ، وأملتها ظروف سياسية واجتماعية ومذهبية ٠ غير أن طبيعـــة التعدد – الذى وصل الى حد التناقض – فى التصور العقدى وفى السلوك الدينى عند الهندوسيين ، تجاوز الحد المألوف فى المجتمعات الدينية الاخرى ويرجع ذلك الى اسباب منها :

١ – تفاوت السكان فى اللغة ، ودرجة الحضارة والثقافة تفاوتا ، لا نظير له فى المجتمعات الدينية الاخرى ٠

٢ – أحدث هذا التفاوت أثره المشاهد فى الهندوسية ، فهى لاتنسب لفرد معين ، اسسها ووضع قواعدها الاساسية ، ثم جاء خلفاؤه ، ففسروها واختلفوا فى تفسيرها ٠ لو كان الامر كذلك ، لاقتصر الاختلاف على تباين وجهات النظر فى التفسير ، ولبقى فى الدائرة المعروفة للاديان ، حيث يجمع معتنقوها على الاصول ، ويختلفون فى الفروع ٠ ولكن الاختـــــلاف لدى الهندوسيين امتد الى الاصول أيضا ، لانه لا يعرف لها مؤسس معين ، بل هى مبادىء ، تطورت عبر القرون ، جارفة معها افكار وتصورات العصور المتعددة ، وممسكة بملامح كل بيئات الهند المختلفة ، فجمعت النظريات الفلسفية ، بجانب الاساطير

الشعبية ، بما فيها خرافات ، وتصورات بدائية ، واعمال يعجز العقل المتحضر عن فهمها ، فضلا عن الوصول الى سرها ، أو الهدف من ممارستها ٠

٣ – ليس الدين الهندوسى كلمة تجمع حولها المؤمنين بها ، وليس فكرا لمؤسس واحد يكون قاعدة مشتركة لمن يشتغلون بتفسيره والدعوة له ، بل هو بمثابة خيط مستمر التطور ، يربط الماضى والحاضر فى تيار غير منقطع ، ويضم حوله صورا من الماضى السحيق ، بجانب تصورات دينية حديثة ٠ ولذا لا نجد فيه عقيدة دينية محددة وثابتة ، كما فى الاديان الاخرى ، ولا يؤمن أتباعه بنظرية محددة عن خلق العالم ، أو عن خلق القوى المادية وغير المادية ، ولا عن خلق الروح ، او علاقة الجسم بها ، كذلك لا تفسر الاوامر والنواهى الدينية تفسيرا محددا ، بحيث تكون ملزمة للكل على طريقة واحدة ، ولهذا يوجد هنودوسيون يأكلون اللحم ، وآخرون يحرمونه على انفسهم ، ويعيشون نباتيين طول حياتهم ، كما يوجد منهم من يعزف الموسيقى ، ويستمتع بسماعها ، ومنهم من يعيش حياة قاسية حيث يحرم على نفسه كل انواع الطيبات ، التى يتمتع بها اخوه فى العقيدة ، وغير ذلك كثير ، ومختلف فيه اختلافا لا حد له ٠

٤ – يعتقد الهندوسيون ان دينهم هو الحقيقة ، التى يجب ان تبلغ للناس فى كل عصر بصورة مطابقة لمقتضيات ذلك العصر ٠ وطبقا لهذا يعتقدون أنه يظهر فى كل زمان حكماء ، وأناس تحل فيهم الروح **الالهية** – روح براهما – ليجددوا الرسالة ، ويقوموا بنشرها ، مثل :

«Vyasa فياســـــا » (١) و « Manu مانــــو » (٢) و « Rama رامــــا » و « Shankara شـــانكارا » و « Ramakrishna راما كريشنا » ٠ ولم يات هؤلاء ـ كما يقول الهندوسيون ـ بتعاليم جديدة ، بل كانت مهمتهم تجديد التعاليم الموجودة ، لتلائم العصر ٠

ومما لا شك فيه أن المعالم الفكرية للعصور المختلفة ، وجدت طريقها الى الدين الهندى عن طريق هؤلاء الحكماء ، فالمفكر ابن عصره ، مهما بولغ فى عزله عن المنابع الفكرية غير الدينية ، كما يتأثر ـ نسبيا ـ بتعاليم الأديان الأخرى ان سمحت الظروف بوصولها اليه ، سواء كان عن طريق الدراسة لاشباع رغبة عنده ، أو المجادلة مع بنى وطنه ٠

وقد ظهر واضحا عند حكماء الهند ودعاة الاصلاح ، الذين ظهروا فيها بعد الفتح الاسلامى ، فتأثرهم بالاسلام بدا جليا فى المبادىء التى اعتقنوها ودعوا اليها وفى المجالات الكلامية التى تناولت حقيقة

---

(١) « Vyasa فياســـــا » أحد الشخصيات المقدســـــة فى الاساطير الهندية ، ويقال انه هو الذى رتب نصوص « الفيدا » ٠

(٢) « Manu مانو » (ومعناه فى اللغـــــة السنكريتية : انسان) تقول الأساطير الهندية أنه « ابو البشر » ويعتبرونه منبع الفضيلة والخير ٠

الذات الالهيـــة ، فبينما يرى « Ramanuja رامانوجا » (١) – وهو من أتباع المذهب « الشيفى » – أن الأرواح والمادة جوهر الالوهية ، يخالفه « Madhva مادفا » (٢) فيذهب الى أن الارواح والمادة جواهر متحدة ، وتختلف اختلافا كليا عن الله ، غير انها خاضعة لسلطانه .

أثر الاسلام أيضا فى الحركات الاصلاحية – ذات الطـــابع الدينى – التى ظهرت فى الهند مثل :

١ – حـركة « Brahma — Samag براهما – ساماج »

---

(١) « Ramanuja رامانوجا » : عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى ويعتبر المرجع فى « الاوبانيشادات » والفلسفة الهندية بعد « شانكارا » ، غير انه خالف نظرية الوحدة التى كان يدعو اليها « شانكارا » فأصبح أكبر مدافع عن عبادة «فيشنو» فى جنوب الهند . ركز « رامانوجا » على العمل الصالح والتقوى كطريق الى الخير ، ودعا الى محبـــة الله ، وخاصة « راما » كـ « تجسيد » للاله « فيشنو » .

(٢) « Madhva مادفـــا » : أحـــد رجـــال الدين الهندوسى فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهو من « الفيشنويين » (نسبة الى فيشنو) . ذهب الى ثنائية الله والروح الفرد – مخالفا بذلك الوحدة الفلسفية ، القائمة على مبادىء « الاوبانيشادات » – وأن محبة الله تستطيع قهر هذه الثنائية والوصول الى الخلاص . ويرى أتباع هذا الاتجاه – ويطلق عليهم «المادفيون» – أن العناصر الخالدة تكمن فى « فيشنو » وهى مختلفـــة عن جواهر الارواح والاشياء المادية .

أى جمـــاعة المـــؤمنين باللـــه أسسها « Ram Mohan Roy
« رام موهان روى » (١) فى عام ١٨٢٩ م ومن مبادئها : تحريم الصور والتماثيل فى المعابد ، ومحاربة تقديســـها والدعوة الى التوحيد . وقد لعبت هذه الحركة دورا كبيرا فى قرار الحكومة تحريم حرق الزوجة التى مات عنها زوجها ، وبذلك أبطلت عادة من عادات الدين الهندوسى .

٢ ــ « الربانيون فى الهند الحديثة ، أسسها « Keshab Candra كيشـــاب كاندرا » فى اقليم البنغال فى عام ١٨٨١م وهم يمثلون فرعا انفصل عن جماعة المؤمنين بالله ، واتجه الى محاولة جمع الاديان كلها فى قالب واحد فهم ــ كما وصفهم «Nulle» يعزفون « سيمفونية جميع الاديان » .

٣ ــ « جماعة الآريين (Aryasamaj) اسسها « Dayanand دايانآند » (١٨٢٤ ــ ١٨٨٣ م) فى عام ١٨٧٥ م وهى طائفة

---

(١) « Ram Mohan Roy رام موهـــــان روى » (١٧٧٢ ــ ١٨٣٣ م) ساعدته دراسته فى العلوم المختلفة ــ تعلم العربية ، والفارسية ، والتكريتية ، وقرأ القرآن ، واطلع على كثير من الأفكار الحديثة ــ على ادراك أن الدين الهندوسى لا يمكنـــه مقاومة التيارات الحديثة ، فحاول أن يدخل عليه بعض الاصلاحات، كى يتمكن من الصمود امام الغزو الفكرى ، ويرى بعض علماء الاديان الأوروبيين أن التيار الفكرى الاوروبى ، كان السبب فى دفعه الى تكوين جمعية « براهما ساماج » وهو رأى يحتاج الى دليل ، اما الشىء الذى لا مراء فيه ، فهو ان معالم الاسلام بدت واضحة فى مبادىء جمعيته .

تدعو الى التوحيد ، ونبذ الصور ، وتعد من الطوائف التى حاولت تطهير الدين الهندى ، ليلائم العصر الحديث ، غير انها ترى أن « الفيدا » هى منبع كل الحقائق ، ولذا ينبغى ألا تخرج الصور الجديدة للدين عن المبادىء الموجودة فيها • وهى تميل الى مزج الهندوسية مع المسيحية ، ولذا فهى تقف موقف المعارضة معجمعية « براهما ساماج » •

انعكست هذه الظاهرة على الجانب الآخر ، فقد خرج من بين المسلمين أسماء فى شهادة الميلاد — وفى الهند من نادى بدعاوى تقوم مبادئها على مزج الاسلام بالهندوسية ، او ادخال عادات وتقاليد هندوسية فى المجتمع الاسلامى ، ومن اشهرهم :

١ — « كبير » (١٤٤٠ — ١٥١٨ م) : ولد لأبوين مسلمين واشتهر بقرض الشعر • اعتنق فكرة المزج بين الاسلام والهندوسية ، ودعا اليها ، فكان يرى ان كلا العقيدتين تعظم الها واحدا متعاليا ، والفرق بينهما ، هو فى الصورة الظاهرية للعبادة فقط ، ولذا تساوت عنده الاماكن المقدسة فى الدين الهندوسى بالمشاعر الحرام فى مكة ، ولم يختلف القرآن — عنده — عن الكتب المقدسة الهندوسية •

أخذ عن الهندوسية :

عقيدة تناسخ الأرواح ، وقانون الجزاء الأخلاقى «Karma Gesetz» والايمان بأن محبة الله «Bhahti» هى الطريق الوحيد للخلاص •

وأخذ عن الاسلام :

تحريم عبادة الاصنام •

٢ _ « جورونانـاك «Guru Nanak» (١) (١٤٦٩ _ ١٥٣٨ م) : أسس دين « السيك » (٢) فى اقليم البنجاب بالهند فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وكان هدفه جمع المسلمين والهندوسيين على اساس الاعتقاد بوحدانية الله ، والمساواة بين الناس · ويقال : أنه قرأ القرآن الكريم ، وحج بيت الله الحرام وسلك طريق الصوفية ·

---

(١) « جورو » (ومعناها فى اللغة السنسكريتية : استاذ أو معلم ، أو صاحب فضيلة أو صاحب غبطة) : وهو لقب اطلق على أئمتهم ، ويقابله فى الأديان الأخرى : بابا ، أو ملا ، أو امام ، ويلقب به خلفاء «ناناك» العشرة، وكان آخرهم «Govind Singh» (١٦٧٥ _ ١٧١٩ م) الذى لم يسم خليفة له ، بل دعاهم الى اتخاذ الكتاب المقدس «Adi Granth» اماما لهم ·

(٢) تأسس دين « السيك » _ أو السيخ ، ومعناها : المريدون _ فى القرن السادس عشر الميلادى ، وانتشر فى البنجاب ، وتبوأ أتباعه مكانا سياسيا هاما بسبب حربهم ضد المغول فى عهد «Govind Singh» الذى اطلق على كل فرد منهم فى تنظيمهم العسكرى كلمة «Singh» (أى أسد) وبعد موته فقدت الطائفة مركزها السياسى ، ولكن الجماعة ازدهرت فى عهدالملك «Randschit Singh» من ١٧٨٠ _ ١٨٢٩ م الذى وحدهم ، لكنهم هزموا بعد موته بفترة قصيرة أمام الغزو البريطانى ، وفى عام ١٩٤٧ رحلوا عن منطقة البنجاب الواقعة فى باكستان · وهم يعيشون الآن فى البنجاب الشرقية وفى المناطق الشمالية الأخرى فى الهند ، متفرقين بين الهندوسيين ·

و « السيك » قوم موحدون ، لكنهم يطلقون على الههم أحد أوصاف الاله « فشنو » ألا وهو «Hari» ، كمـــا يعظمـــون ائمتهم ويعتبرونهم واســـــطة بينهم وبين الله ، كمـــا اتخذوا «Adi Granth» (١) كتابا مقدسا لهم ، وفرض عليهم أئمتهم طقوسا مقتبسة من أديان مختلفة مثل :التعميد بماء السكر، وارتداء زى خاص بهم ، واتباع نوع معين فى حلاقة الشعر ، واطلاق اللحية ، كما حرموا عليهم الختان والحج ٠

٣ ــ جلال الدين أكبر : من أشهر ملوك الدولة المغولية ، تولى عرش هذه المملكة الاسلامية وهو شاب فى مقتبل العمر فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى (١٥٥٦ م) ، وظل حاكما قويا لها حتى عام ١٦٠٥م ، كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه رزق عقلا كبيرا ، عداه الى البحث والدراسة عن طريق السماع ، فجمع حوله صفوة من رجال الاديان المختلفة الموجودة فى مملكته ، ورتب لهم عقد جلسة للمناقشة والبحث فى القضايا الدينية فى يوم الثلاثاء من

---

(١) فى اللغة السنسكريتية «Adi» أصل و «Granth» كتاب فمعنى الاسم اذن : الكتاب الأصلى (أو أم الـكتاب) ، وموضوعه الرئيسى الاله الواحد ، أو الجوهر الأعلى ، ويتألف من ٣٣٨٤ نشيدا ، تحتوى على ٥٥٧٥ بيتا شعريا ٠

كتب فى البنجاب بلهجة « ناناك » وجمع فى عام ١٦٠٤ ، وأصـــــوله التى يطلـق عليهـــا «Darber Sahib» محفوظة فى المعبد الذهبى فى «Amritser» « أمر تسر » ويجب على كل « سيكى » حفظ الجزء الاول منه ، وتلاوته كل صباح ومن لم يفعل ذلك فليس « سيكيا » ٠

كل اسبوع ، فكانت هذه الجلسات مسرحا لطرح عقائد متباينة ، وتصورات دينية مختلفة ، وآراء متنافرة ، وأفكار متضاربة فى أسلوب جدلى عنيف ، سيطرت عليه رغبة كل فريق الانتصار لدينه ودحر الاديان الاخرى ، ضاربين الصفح عن جميع الاعتبارات الاخرى، التى ينبغى الالتزام بها عند مناقشة اصحاب الاديان المخالفة ، وغافلين عن القواعد السليمة التى يجب الحرص عليها فى مثل هذه الاحوال للوصول الى التعاليم الدينية التى لا تتنافى مع طبيعة الانسان ، والتى تحقق للفرد الامان والاطمئنان فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ٠

غرست هذه المناقشات الشك فى قلب جـــلال الدين اكبر ، فتزعزعت عقيدته واضطرب تفكيره ، فاستولت عليه الحيرة ، فسدت أمامه سبيل الوصول الى الحقيقة المطلقة ، لأن الحقائق الدينية اهتزت امامه من جراء هذه المساجلات بين صفوة رجـــال الاديان المختلفة ، فانتهز هذه الفرصـــة بعض رجـــال الدين المغامرين (١) فأوهموه أنه العبقرى الأوحد ودفعوه الى دعوى الاجتهاد

---

(١) وأقصد بهم أولئك الذين يسعون للتقرب من الحاكم ، لينالوا جاها او مالا او كليهما ، وما اكثرهم فى كل عصر ، ولم – ولن – يخل جيل من أمثال هؤلاء الذين يزينون للحاكم صواب رأيه، بل يبحثون له عن سند لها من الدين ، وان أولوا النصوص تأويلا متعسفا فيه ، وأحيانا يجهدون أنفسهم فى البحث عن مبرر دينى – فى رأيهم – لتعطيل حكم ابتغاء مرضاة الحاكم ، والا لحقتهم اللعنة فيطردون من مناصبهم ، ليحل محلهم من عنده استعداد اكبر لتحقيق هذه الغاية ٠

المطلق وزينوا له انه صاحب دورة دينية جديدة ، فادعى ان عصر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قد انتهى بنهاية الالف عام ، وبدأ عهد امامته ، امامة السلطان أكبر ، فهو الآن صاحب الكلمة فى العقيدة الدينية ، ثم اعلن فكرة التقريب بين الاديان ليتفادى الخلاف الذى ظهر فى جلسات الثلاثاء بين رجال الاديان ، وتجتمع الهند بأسرها تحت دين واحد ، فمزج بين مبادىء هندوسـيـة ، واسلامية ٠٠ وزرادشتية فى دين واحد أطلق عليه « دين الله » ، واعتقد انه ظل الله ، ونائب عنه فى الارض ٠

اتبع فى عبادته وعاداته خليطا من الاديان الثلاثة ، وعلى سبيل المثال : آمن بوحدانية الله ، وعبده على طريق براهمة الهند ، وكان يولى وجهه شطر الشمس حين طلوعها متمتما لها بكلمات التقديس ، تعظيما لها ، كما حرم ذبح البقرة فى انحاء الهند كلها . واباح شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ٠

استمر فى هذا الطريق ــ تلفيقا وجمعا ومزجا بين مبادىء الاديان المختلفة ــ حتى بعدت الشقة بينه وبين الدين الاسلامى .

= واذا أمعن المرء النظر فى وجوه الذين يتولون المناصب الدينية الكبرى فى أى دولة ، فسوف يجد ان معظم الذين يتمتعون ببريقها مدة أطول مشايعون للحاكم أو مسالمون له أما أصحاب المبادىء الذين يسعون جاهدين لتطبيقها فى مجال سلطتهم فلا يتولون من المناصب ما يساعدهم على تحقيق غايتهم ، وان لعبت الظروف دورا فى توليتهم يوما ما ، فسرعان ما يقع الصدام بينهم وبين ذوى الاهواء والمطامع فيخرجون ، ويحاصرون ، حتى لا تنتقل عدواهم الى غيرهم ، فتتسع دائرة المخلصين لتحاصر شلل المنتفعين ٠

فنشا عنده شعور بالعداء له ـ تحت تاثير من يكنون العداء للدين الاسلامى من رجال بلاطه فكان يسوءه ان يسمى احد فى بلاطه ابنه محمدا ٠ وبذلك اصبح الاسلام غريبا فى تلك البلاد ، التى استمر فيها الحكم الاسلامى زهاء خمسة قرون وكاد يقضى عليه لولا هلاك جلال الدين أكبر ، وجهود كثير من العلماء المخلصين من أمثال الشيخ أحمد بن عبد الأحد السهرندى (١) ٠

كان لهذه الظاهرة الهندية ـ ظاهرة التلفيق والمزج بين الاديان المختلفة ، لنسج دين ، أو مذهب جديد ـ أثر كبير على ميرزا غلام احمد ، فنادى بدعوة ـ هى القاديانية ـ مزج فيها بين مبادىء مسيحية ، واخرى اسلامية ، على النحو الذى سنبينه فيما بعد ٠

---

(١) هو أحمد بن عبد الاحد بن زين العابدين الفاروقى السهرندى (٩٧١ /١٠٣٤هـ ـ١٥٦٣/١٦٢٥م) من علماء الهند ، الداعين الى نبذ البدع ٠ ويلقب بمجدد الالف الثانى ٠ نسبة الى « سهرند » ومعناها : « غابة الاسد » بين دهلى ولاهور ، ومولده ووفاته بها ٠ تفقه وحج ، واشتغل بالتدريس ، وحبسه السلطان « جهانكير » ، قيل : لامتناعه عن السجود تعظيما له ٠ وأطلق سراحه بعد ثلاث سنوات ، فعاد الى « سهرند » ٠ من مؤلفاته : رسائل فى « المبدأ والمعاد » ٠ و « اثبات النبوة » و « المعارف اللدنية » و « رد الشيعة » ٠

(أنظر : أبجد العلوم ٨٩٨ ، وهداية العارفين : ١ : ١٥٦ ـ عن الاعلام للزركلى) ٠

الباب الثانى

الصراع الدينى

يواكب الصراع بين الاديان والمذاهب مسيرة التاريخ ، فمنذ وجد الانسان على سطح الأرض لم يخل عصر من مساجلات ومصادمات — تصل فى معظم الأحيان الى الصدام المسلح — بين أتباع الاديان والمذاهب المختلفة ولن يشهد الانسان حقبة تختفى فيها المنازعات اختفاء مطلقا .. قد تهدأ فيتوارى الصراع المسلح عن الساحة ، حيث تغمد السيوف — وما فى حكمها — فى أجربتها . بينما تستمر المساجلات الكلامية بشكل أو بآخر . وقد تحتم ظروف العصر الامتناع — أو التخفيف من لهجة تحليل ونقد العقيدة المخالفة — عن مباشرة هذا النوع من الدفاع عن العقيدة ، ذلك الدفاع ، الذى يستلزم — بجانب بيان صحتها — الكشف عن ضعف ووهن العقائد المخالفة لها ، ولكن من المستحيل ان تتجاوز المصالحة هذا الحد ، الا فى حالة ضعف العقيدة عند احد الفريقين . ويكون هذا مقدمة لذوبانها فى عقيدة الطرف الآخر مثلما حدث للعقائد ، التى اختفت من المجتمعات الشرقية القديمة ، لتحل مكانها عقائد اخرى كالمسيحية والاسلام (١) .

---

(١) قد يمتزج القديم بالحديث ، عندما يضعف عن المقاومة ، ومثال ذلك ما حدث للدين « الفيدى » فقد امتزج بدين الآريين ، الذين غزوا الهند فيما قبل التاريخ ، ونتج عنهما ما يعرف بـ « الهندوسية » أو « البرهمانية » .

فاذا تصفحنا التاريخ فسنجد سطوره مليئة بالدماء ، التى سالت أنهارا فى حلبة الصراع بين قوم يتمسكون بما وجدوا عليه آباءهم من عقائد وعادات ـ رغم ما تخللها من تحريف وانحراف ، وما خالطها من أهواء وشهوات الانسان ـ ورسل أتوا لتصحيح مسار الدين ـ دين الله الواحد ، الذى انزله على جميع الرسل ـ فى المجتمعات البشرية ، وسوف نجد أيضا أن أعنفها وأطولها هو صراع الشرق الاسلامى مع أوروبا المسيحية ، فقد اتخذ صوراشتى. واساليب متعددة ، طبقا للظروف والملابسات ، التى تناسب العصر، وتتفق مع الزمن ٠ والسبب فى عنف هذا الصراع ، وامتداده على طول اربعة عشر قرنا ، يرجع الى :

أولا ـ أصالة الدين الاسلامى فى النفوس :

- بما يدعو اليه من سماحة وأخوة ، ومساواة بين المؤمنين جميعا لا فرق بين غنى وفقير ، ولا بين حاكم ومحكوم ٠

- وبما يغرسه فى عقول المؤمنين من مبادىء تتفق مع واقع الوجود الانسانى ، فلا رهبانية ، تصيب الغرائز الانسانية بداء الشلل ، فيمنعها عن ممارسة ما خلقت له ، ولا انغماس فى المادية الى حد تدمير الفرد والمجتمع ٠

فتعاليم الاسلام مطابقة للطبيعة البشرية ، تصفى الروح من الشوائب المميتة ، وتحث على العمل لبناء الحضارة المادية ، كما تحذر من التفريط أو الافراط كى لا يختل التوازن ، لانه اذا افرط المجتمع فى المادية ، وفرط فى النواحى الروحية ، سادت الانانية ، وحب الدنيا ، واستولى الطمع والجشع على النفوس ، فهان كل شىء ـ حتى العقيدة ـ فى سبيل الوصول الى ارضـــــــاء النفس

الشهوانية ، واشباع الرغبات الجسمانية ، فتضيع الدولة أمام هجمات الاعداء ، كما حدث للمسلمين فى الاندلس ، عندما شاعت الانانية وحب الذات بين القادة والامراء وحرصوا على الدنيا . فقتلوا وصلبوا كثيرا من اخوانهم المسلمين ارضاء للنفس الأمارة بالسوء ، واشباعا لشهوة الحكم فضعفوا وصاروا لقمة سائغة للهجمات النصرانية ، التى لم تهدأ حتى قضت على الاسلام نهائيا فى الاندلس .

واذا فرط فى الأخذ بأسباب القوى المادية ، خيم الجمود على الدولة فأورثها الوهن والضعف ، فيتصدع بنيانها ، وتتفكك اوصالها ، وهو ما حدث للشرق الاسلامى فى القرون الوسطى ، فقد عاش منطويا على نفسه حقبة أضعفته وأنهكته ، فسقط أمام الزحف الغربى سياسيا وعسكريا ، لانه فقد التفوق الحضارى الذى كان يتمتع به أيام الحروب الصليبية ، سقط لان المعركة كانت بين طرفين غير متكافئين ماديا ، فتقدم البلاد الغربية فى النواحى التكنولوجية ، منحها تفوقا لم يستطع العالم الاسلامى الصمود أمامه ، فتهاوت أقطاره ـ الواحد تلو الآخر ـ أمام جنود الاستعمار الأوروبى ، ولم يأت منتصف القرن التاسع عشر الا والعالم الاسلامى كله خاضع ـ بشكل أو بآخر ـ لسيطرة القوى الاستعمارية الأوروبية .

كانت البرتغال هى الدولة الأوروبية الأولى ، التى عبدت طريق الاستعمار الغربى المسيحى فى وسط آسيا وشرقها ، فى الهند وفى اندونيسيا فى سنة ١٥١١ م مستخدمة فى ذلك اسطولها البحرى ، الذى كان يضرب به المثل ، حتى أن ملكها حصل من «البابا اسكندر» على صك رسمى « بأن البرتغال » سيدة بحار العرب والعجم والهند

والحبشة » لكن البرتغال فقدت استقلالها ، باعلان ملك اسبانيا ضمها الى بلاده فى عام ١٥٨٠ م ، الا أن القوى الاستعمارية الاخرى - الانجليزية ، والفرنسية ، والهولندية ، والالمانية ، والروسية - سارت على الدرب ، فكونت الشركات ، التى مهدت الطريق للغزو العسكرى والفكرى ، بعد السيطرة على الموارد الاقتصادية · بدأ النشاط المحموم لهذه الشركات فى القرن السابع عشر (١) ولم يمض قرنين ونصف حتى تمكن الغرب المسيحى من السيطرة التامة على المسلمين فى وسط آسيا وشرقها ، وأقام له محاور رئيسية فى افريقيا كما تمكن من بسط نفوذه فى قلب العالم الاسلامى ومركزه الرسمى وهو منطقة الشرق الاوسط ، وبذلك طرق العالم الاسلامى من الشرق والغرب وسلط ألاعيبه ودسائسه على بقية المجتمعات الاسلامية بين هذين الطرفين حتى وصل نفوذه الى بلاط الباب العالى فى تركيا ، وبلاط الدولة الصفوية فى ايران ·· فوهنت التجمعات الاسلامية ، وانحل عقدها فسقط بعضها اثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربى المسيحى ، ولم تنته الحرب العالمية الاولى الا والعالم الاسلامى كله تحت نفوذ هذا المستعمر ·

أدرك الخلفاء فى تركيا خطر التفوق الحضارى الغربى على الخلافة العثمانية فحاولوا الدفاع عنها بالدعوة الى حركة اصلاحية ، تهيىء الشعب لمقاومة هذا الغزو الثقافى والفكرى ، وتعده اعدادا حديثا للكفاح المسلح ضد الهجوم الغربى لكنهم وقعوا فى أخطاء عجلت بالقضاء علي سلطانهم ، وضياع احدى الدول الاسلامية

---

(١) احتلت هولندا جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) فى بداية القرن السابع عشر الميلادى عن طريق شركة الهند الهولاندية التى تأسست عام ١٦٠٢ م ·

الكبرى (١) فقد استعان الخلفاء بخبراء غربيين لكى يقيموا لأنفسهم « حصونا » تحميهم من النفوذ ، فانطبق عليهم قول الشاعر :

والمستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

وفى الوقت نفسه حـــاول الخلفاء كسب صداقة كل القـــوى المتصارعة على بسط نفوذها فى أنحاء الدولة ، فمنحوا كل الامتيازات الممكنة للدول الاجنبية ومن بينها ـ على سبيل المثال ـ السماح لكل المذاهب بحرية ممارسة طقوسها وعبادتها ، كما أعطوا لكل طائفة الحق فى انشاء مدارس خاصة بها فانهارت بذلك الجسور الاخيرة التى حمت المملكة العثمانية من الطوفان الثقافى ، الذى نبت فى الغرب ٠

وتحت ضغط القوى الغربية اندفع تأثير الغرب الى أبعد من هذا،اذ حصل لبنان على نظام ادارى جديد ، منح المسيحيين امتيازات جعلت كفتهم راجحة على كفة غيرهم ، كذلك منحت المناطق الواقعة تحت النفوذ الفرنسى حكما ذاتيا ، وتبع ذلك قيام هيئة مالية من الفرنسيين والانجليز بتأسيس « بنك الامبراطورية العثمانية » ٠٠٠ الخ

وهكذا تسلل النفوذ الغربى فى جميع أجهزة الدولة ، وأقطارها المختلفة حتى تم له السيطرة عليها كلها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (٢) ٠

---

(١) وجدت آنذاك دولتان أخريتان هما : الدولة الصـــفوية فى ايران والدولة التيمورية فى الهند ٠

(٢) راجع كتاب : « الاسلام قوة الغد العالمية » لـ « باول شمتز » ترجمة : الدكتور محمد شامة

واتخذ النفوذ الغربى فى ايران خطا مشابها لمخططه الذى نفذه فى تركيا ، فقد تعرضت الدولة الاسلامية هناك لضغط روسى من الشمال ، وقابله ضغط انجليزى من الجنوب ، فبدا الخطر واضحا من الناحيتين مما جعل الشاه ناصر الدين يحاول وضع خطة اصلاح تمكنه من التصدى لهذا الخطر الماثل أمام عينيه كالشبح المرعب ، ففتح بذلك طريقا للعقل الأوروبى كما كان الحال فى تركيا ، ولم يستطع التخلص منه بعد ذلك ، ثم سارت الامور على النحو الذى سارت عليه فى تركيا ، فواجه الشعب القوى الغربية والانتاج الغربى ، واستمرت المواجهة زمنا طويلا حتى خضعت هذه الدولة الاسلامية للنفوذ الانجليزى والروسى ، اذ أذيع فى طهران فى ٣١ اغسطس ١٩٠٧ نصوص المعاهدة التى عقدت بين روسيا وانجلترا . وكان من بين بنودها :

تقسيم ايران الى منطقة نفوذ روسية ، وأخرى انجليزية . وبذلك سقطت تلك المملكة الاسلامية بين براثن الاستعمار .

أما فى الهند ، فقد بدأ العد التنازلى لقوة الدولة الاسلامية بعد موت الامبراطور « أورنجزيب » الذى أخضع الهند كلها للحكم الاسلامى ، اذ جاء بعده خلفاء ضعاف ، لم يكن لهم من الحزم والقوة ما يمكنهم من ضبط الأمور فى هذه المملكة المترامية الأطراف ، فأخذت الدولة تتهاوى ، وتتفتت شيئا فشيئا ، واستغل الامراء هذه الفرصة ، فعملوا على استقلال اماراتهم عن السلطة المركزية .

ولم تقتصر هذه الظاهرة على الامراء المسلمين فقط ، بل هيئت الظروف لبعض الامراء الهندوس والسيخ ليجمعوا الجيوش ، ويشنوا الحروب على الدولة الاسلامية ، ويقتطعوا لهم من جسمها الكبير ولايات يحكمونها .. فانحسر نفوذ السلطة المركزية وانكمش

حتى أصبحت هيكلا بدون روح ، وشكلا لا حياة فيـــه ٠٠ ومن خلال هذا التفتت وضياع هيبة السلطة الاسلامية تسلل النفوذ الغربى عن طريق شركة الهند الشرقية الانجليـــزية ، والشركات الهولاندية والفرنسية (١) التى تصارعت فى بادىء الأمر على بسط نفوذها على التركة الاسلامية الواسعة ٠٠ الى ان انفردت شركة الهند الانجليزية بالسيطرة ، بعد ما قضت على الشركات الاخرى المنافسة لها فخلت الساحة لها لتنفيذ خطتها الاســـــتعمارية التى استهدفت السيطرة الكاملة – اقتصاديا وعسكريا وسياسيا – على الهند كلها ، لكن المسلمين قاوموها مقاومة عنيفة ، بلغت فى

---

(١) بدأت هذه الشركات عملها التجارى فى أرض الهند ، ابان قوة الحكم الاسلامى وازدهاره ٠٠ وكانت تسعى ما أمكنها السعى لتحظى بالمقام الاول فى الحصول على مركز تجارى يتيح لها مكسبا تجاريا فى محصولات الهند التى كانت تصدرها الى أوروبا ، وكان الحكام فى أوج قوتهم ، لا ينظرون الى هؤلاء الا نظرتهم لتاجر يريد أن يكسب مالا من تجارته ، لا أن يكسب أرضا ويبسط نفوذا ٠٠ ولذلك تركوهم يتاجرون ، وربما منحوهم بعض التســــهيلات التجارية ٠

ولكن هؤلاء كانوا كالمرابى الذى لا ينظر الى فائدته الربوية ، بقدر ما يرمى من بعيد للحصول على الأرض والاستيلاء عليها ٠٠ وكانت هذه الشركات تعمل ، ومن ورائها حكوماتها التى تسعى الى التوسع الاستعمارى ، وواتتها الفرصة حين ضعف الحكم الاسلامى وتفتت وحدة البلاد وانشغالها بحرب بعضها بعضا ، فبدأت فى دور جديد ، وهو دور بسط النفوذ على البلاد وأخذت هذه الشركات تتصارع على اللقمة الدسمة الكبيرة التى أمامها ٠

بعض مراحلها حد الاشتباك المسلح ، فقد قام الامير سراج الدين بالهجوم المسلح على حصونهم فى البنغال وكاد ان يقضى عليهم ، لكنه فشل بسبب خيانة بعض قواده فقبض عليه وأعدم ٠

اتخذ الانجليز من هذه الاحداث تكأة لاحكام قبضتهم على البنغال ثم اتخذوها قاعدة للسيطرة على البلاد كلها ٠

لم ييأس المسلمون ، فحاول حيدر على القضاء على الانجليز فى الجنوب مستغلا النزاع القائم بينهم وبين الفرنسيين ، ثم سار ابنه على دربه ، فحمل السلاح ، لكنه خر صريعا فى المعركة ، فظن الانجليز أن الجو قد خلا لهم فبدأوا ينفذون الخطط للقضاء على البقية الباقية من المقاومة الاسلامية ٠

وضحت صورة الاستعمار البغيض أمام عيون المسلمين ، وأدركوا أبعاد الشر القادم من الغرب للقضاء على مبادئهم وتقاليدهم الدينية ، كى يتمكن من استغلال مواردهم البشرية والمادية ، فأحسوا بالكابوس الاستعمارى يثقل كاهلهم ، وشعروا بالاغلال التى قيدتهم بها جيوش المستعمر ، فامتلأت نفوسهم غيظا وأفئدتهم حقدا ، واشتد غليان الدم فى عروقهم ، فدفعهم الى ثورة جامحة فى عام ١٢٧٤ هـ ــ ١٨٥٧ م ، لكن توقيتها كان متأخرا ، فقد جاءت بعد أن بسط الانجليز نفوذهم على كل البلاد تقريبا ، ففشلت ، وتحمل المسلمون وحدهم نتائج هذا الفشل أمام العدو المنتصر ، فمثل بهم الانجليز شر تمثيل ، وعملوا على اذلالهم ومطاردتهم ، والقضاء على كل حيوية فيهم ، فقبضوا على الامبراطور المسلم « سراج الدين أبو ظفر شاه » الذى كان يهدف الثوار الى ارجاع سلطته ونفوذه اليهم ، فحاكموه ، وحكموا عليه بالاعدام ، ثم خففوا الحكم عليه بنفيه الى « رانجون » عاصمة بورما ، وظل حبيسا هناك حتى لقى ربه ودفن بأرضها ٠٠ ثم أعلنت الملكة

فيكتوريا ضم الهند لستعمرات التاج البريطانى . فتتـــــابعت النكبات على المسلمين بتمكين المستعمر ، حيث أقام نظاما لحـكم البلاد ، يعتمد على :

- مئات من الخبراء يؤازرهم الجيش .
- وعلى اصطفاء عناصر تدين له بالولاء السياسى والفكرى .
- وعلى استبعاد كل من فى قلبه مثقال ذرة من حمية للوطن أو الدين عن مناصب الحكم والوظائف العامة .

ثم أقام نظاما للتعليم لا يوافق طبيعة المسلمين ، فأبعدوهم بذلك عن مجال الثقافة .

ويعتبر هذا التاريخ ــ وهو منتصف القــرن التاســع عشر الميلادى ــ ذروة ــ النفوذ الاستعمارى فى العالم الاسلامى .

★ ★ ★

ثانيا ــ الوضع الاستراتيجى للعالم الاسلامى :

(أ) فهو يتحكم فى حركة المواصلات العالمية : برية ، وبحرية ، وجوية :

« أدركت القوى الاستعمارية ذلك ، فحاولت السيطرة عليــه لتضمن سلامة تجارتها ، وقد عبر « باول شمتز » فى كتابه : « الاسلام قوة الغد العالمية » عن أهمية منطقة العالم الاسلامى لأوروبا فقال : « عرفت أهمية العالم الاسلامى على مدى القرون ، ذلك انه كان يمثل جزءا من شبكة خطوط المواصلات فى العالم ، فمن المعروف ان الشرق ــ قبل ظهور الاسلام ــ احتل مركزا هاما ، لان الطرق العالمية الكبرى من الغرب الى الشرق الاقصى ، كانت تمر خلال ارضه ، فكان يسيطر على جزء كبير منها ، وهو الممتد من شمال افريقيا وغرب آسيا الى الشرق الاقصى ، وكان شكل الاوضاع السياسية فى هذه البقعة يلعب دورا كبيرا فى الاحداث والتجارة العالمية .

« ان اهمية المنطقة الاسلامية ، فى نظام التجارة العالمية ، فى ذلك الوقت كانت واضحة ، وحقيقة واقعة ، فحكامها كانوا يستطيعون التحكم فى الاسعار عن طريق رفع رسوم المرور والجمارك ، بل كان فى مقدورهم قطع الطريق كله ، اذا بدا لهم أن ذلك فيه فائدة لهم ، أو رغبوا فيه اعتمادا على أى سبب • ومن هنا ظهرت الاطماع فى السيطرة على هذه المنطقة ، وصاحب ذلك تقييم قوى الشرق والغرب ، الذى ظهر واضحا فى النزاع حول المراكز التجارية • فى أرمينية ، وبلاد ما وراء النهرين ، فقد نشط الصدام لأول مرة بين الدولة الرومانية القديمة ـ وفيما بعد بين الدولة البيزنطية ـ وبين العنصر المغولى الزرادشتى ، وقد لعب هذا دورا كبيرا فى تحديد مصير العالم الغربى لعدة قرون •

« ان دور الشرق الأدنى كان مفهوما ، وأهميته ثابتة ، فهو الوسيط بين الشرق الأقصى ، وأوروبا فى التجارة ، يلعب دور البائع والمشترى ومن خلال ذلك يسوق منتجاته الخاصة ، اذ أن مراكز التبادل التجارى تقع منذ قرون عدة على شواطىء البحر الابيض المتوسط فى بلاد الشرق •

« ولم يتغير شىء من هذا بعد ظهـــور الاســـلام فبعد أن قضى الاســـلام على الخـــلاف بين القبـائل العربيـــة ، وغرس الروح الدينية الاسلامية عند العرب ، استطاع هؤلاء أن يقضوا على المملكتين اللتين كانتا تتسمان تلك المنطقة الآسيوية : سقطت المسيحية البيزنطية فى الشمال الغربى والفارسية الزارادشتية فى الشمال الشرقى ، وطبعت تلك البلاد بطابع اسلامى • ثم زحف الفتح الاسلامى الى شمال افريقيا ، وتعداه الى اسبانيا ، وكان علم الاسلام يرفرف على كل تلك المناطق فى عام ٧٥٠م وأصـــبح قدح الزند فى المجالات السياسية والتجارية فى الشرق الادنى فى يد الدولة الاسلامية ، التى مدت سلطانها على المنطقة جغرافيا وثقافيا •

« لم يتخل الشرق فى عصر صدر الاسلام عن دوره كوسيط بين البلاد الغربية والشرق الاقصى ، فسارعت البلاد الغربية الى ملاءمة نفسها مع مصالح تجارة الشرق ، وبذلك استمرت تجارة بلاد الشاطىء الشرقى للبحر الابيض المتوسط فى الازدهار .

« ولكن تغير هذا الوضع عندما قامت الحروب الصليبية .. التى لم يحركها الاحتياج الاقتصادى للبلاد الغربية ، ولم تحركها الرغبة فى أن توضع تجارة الشرق فى أيدى البلاد الغربية ، بقدر ما حركتها الفكرة الدينية ، التى هيأت لصدام الدول الغربيـــة بالشرق .

« أسست أول مستعمرة مسيحية غربية فى بلاد الشرق فى زمن الحروب الصليبية ، ولم يهتم الغازون فى هـــذه المستعمرات بالناحية الدينية ، بل مارسوا مصالح تجارية . كهدف أول ، ولم يكن تأسيس الدول فى تلك المنطقة سوى محاولة جديدة لممارسة توسيع سيطرة الغرب على بلاد الشرق فقد حمل الصليبيون معهم فكرة مدروسة ، مفادها : أن أهمية السيطرة على منطقة غرب آسيا لا يمكن ان يقدر !! اذ هي نقطة اتصال بين الغرب والشرق الاقصى . وثبتت صحة هذه الفكرة لحكام تلك المنطقة منذ قرون ، ومازالت حتى اليوم » .

لم تفقد المنطقة هذه المكانة فى عصر الطيران ، بل ازدادت أهميتها جاء ذلك فى تعبير « باول شمتز » عن الوضع الاستراتيجى للعالم الاسلامى بعد اختراع الطائرات ، حيث يقول :

« لم يحتل العالم الاسلامى مكانا أسمى ، ولا أوضح أهمية ، ولا أحسن صنعا مما ناله ، عندما أقيمت شبكة مواصلات جوية من

أوروبا الى الشرق الاقصى ومنها الى وسط وجنوب أفريقيا ، فقد احتلت مصر المكان الاول فى عالم المواصلات الجوية ، والنقـــل بالطائرات ، لانها نقطة ربط فى هذا المجال ولم ينل بعد أى مكان فى العالم مثل هذه الدرجة . فشركات الطيران الانجليزية والفرنسية والالمانية والهولندية والايطالية ، مهدت الطريق جوا فى سنى ما بعد الحرب عبر الشرق الادنى ، وربطت أوروبا بالشرق والجنوب مارة بهذه المنطقة .. واصبحت البلاد الاسلامية ، ركائز الطريق الجوى الى الهند واستراليا والشرق الاقصى وجنوب أفريقيا

«لم – ولن – تفقد المنطقة أهميتها بالنسبة للتجارة وحركة المواصلات العالمية، وبالتالى كانت – وستظل – حياتها كلها صراعا مع الطامعين فيها، وسوف تشهد المنطقة صراعا مرا بين الشرق والغرب ، صراعا مثل الصراع الذى دار عبر العصور الماضية ، صراعا لن يهدأ مادام للمنطقة هذا الوضع الاستراتيجى ، ومادام الاسلام حيا فيها » .

(ب) ويملك قوى بشرية ومادية هائلة :

وهى من العناصر الرئيسية فى الصراع الدولى ، اذ ترجح كفة الدولة بقدر ما تملك من هذه القوى ، لو أحسنت استخدامها ،

فطن الاستعمار الغربى لهذه القوى ، التى يملكها العــــالم الاسلامى ، فطفق يرسم خططه على أساس عدم تمكين المسلمين من الاستفادة من هذه القوى ، ورغم عكوفه على هذا العمل ، منذ اتصاله بالعالم الاسلامى ، وعدم توانيه لحظـــة عن التفكير فى اضعاف المسلمين من هذا الجانب ، فما فتىء المفكرون فى الغرب يحذرون ويحذرون قوادهم وساستهم من عدم توازن القـــــوى بين الشرق والغرب ، لو خلى بين المسلمين وبين الاستفادة من هذه القوى التى يملكونها .. يقول : « باول شمتز » :

« **تشير ظاهرة نمو السكان فى اقطار الشرق الاســـلامى الى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق والغرب** ، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية ، تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية ، وسوف تمكن الزيادة فى الانتاج البشرى الشرق على نقل السلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود ـ أى عشرات قليلة من السنين ـ وسوف ينجح فى ذلك نجاحا لا نرى من أبعاده اليوم الا النذر اليسير » ٠

وبعد أن يبين مقدار نمو السكان فى مصر ـ كمثل ـ كما تشير بذلك أرقام الاحصاء فى أعوام ١٨٨٧ و ١٨٩٧ و ١٩٠٧ و ١٩٢٧ و ١٩٣٧ يقول :

بينما يعكف الباحثون فى أوروبا على دراسة الظواهر ، التى تشير الى الانخفاض المستمر فى عدد السكان ، ويحـــاولون تبديد التشاؤم ، الذى سببته نتائج دراسات احصائيات تعداد السكان حيث تبين :

متى تختفى الامة !!

بينما الحال هكذا فى أوروبا ، ينشر السياسى المصرى المهتم بالمشاكل السكانية ، أن تعداد مصر ـ اذا استمر معدل هذه الزيادة فى الاضطراد ـ سيبلغ بعد ٦٠ عاما حوالى ٣٢ مليونا (١) أى أن العدد سيكون ضعف العدد الحالى ـ حسب احصائية ١٩٣٧ م ـ

---

(١) تجاوز التعداد هذا التقدير فى مدى أربعين عاما ، اذ يبلغ عدد السكان الآن طبقا للبيانات الرسمية ٤٠ مليونا ٠

وبعد مائة سنة سيزداد سكان وادى النيل – أى مصر – الى ٤٩ر٦ مليون نسمة وبعد ٣٠٠ سنة ، حوالى ٥٠٠ مليونا ، وبعد ٤٢٥ سنة ، حوالى ٢ مليارا – أى أنه سيكون فى مصر أعداد من البشر تساوى ما هو موجود الآن (فى سنة ١٩٣٩) على ظهر الارض – وسيصبح فى مصر فى مدى ٩٦٨ سنة – أى بعد أقل من ألف عام بقليل – أمة تعدادها ٩٧٣ مليارا من البشر ، أى أنها سوف تنمو بشريا الى درجة **لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيارة الاخرى** ٠

ومهما كان الامر ، فان الـ ٤٩ مليونا من البشر ، المتوقع وجودها – طبقا لهذا الحساب – فى مصر عام ٢٠٣٧ م تدعو الى التفكير العميق والتخطيط البعيد المدى ٠

« ان الاضطراد فى زيادة عدد السكان يخلق مشاكل لا حصر لها ، ويبذر بذور القلق فى مسارات السياسة الدولية ٠٠ ولا يقتصر على مصر وحدها بل سيوجد أيضا – مع اختلاف بسيط – فى الشرق الاسلامى كله ، ويتوقع المراقبون أن تكون هذه الظاهرة احدى نقط النزاع بين الشرق والغرب وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية ، فمائة عام – وهو الزمن الذى قدر لبلوغ تعداد سكان مصر ٤٩ مليونا – زمن قصير فى حياة الشعوب وفى سجل التاريخ » ٠

ثم تتبع نسبة الزيادة فى تركيا وفلسطين وفى الجزائر وتونس وعقب عليها قائلا :

لو طبقنا ما توصلت اليه دراسة الاحصاءات السكانية فى مصر وتركيا على جميع مناطق العالم الاسلامى التى توجد فيها أنظمة حديثة لتعداد السكان – اذ يعتمد فى احصاء السكان فيها

على التقدير ، ويمكن الاعتماد على نتائجه ، لأن غالبا ما يوصل الى حقائق مؤكدة ـ لظهرت لنا أبعاد مؤثرات القوى البشرية ، فهى تسهم الى حد بعيد فى بناء قوة عالمية .

لقد دفع الصراع بين القوى الأوروبية . العظمى ، وبين الشعوب الاسلامية ـ وهو صراع نتج عن اتجاه أوروبا الى التوسع الاستعمارى ـ الى ضرورة القيام بدراسات مقارنة ، فى المجال الســـكانى ، للوقوف على اتجاه ميزان القوى ـ من الناحية البشرية ـ بين الطرفين ، وتوصل الباحثون الى نتيجة ، تدعو الى التفكير والتأمل فقد أثبتوا ـ بناء على أرقام توصلوا اليها فى عام ١٩٣١ ـ أن بين كل ٣٫١٣ من البالغين فى أوروبا (١) يوجد شاب واحد تحت الخامسة عشرة ، أما فى مصر وتركيا وايران فقد أثبتت الاحصاءات التى أجريت فى نفس العام ، أن فيها شابا تحت الخامسة عشرة بين كل ١٫٣٨ من البالغين ، وطبقا لهذه النتيجة ، التى تبين اختلاف نسبة الاطفال ، الى البالغين فى أوروبا والعالم الاسلامى ، أمكن للمرء أن يتنبأ ، بأن تفوق الانتاج البشرى فى المنطقة الاسلامية ، سوف يؤثر تأثيرا بالغا على العلاقة بين الشرق والغرب فى عشرات السنين القادمة .

« لا يمكن أن يغيب عن المرء ـ اذا قارنا أسباب القوة بين

---

(١) نشرت الصحف فى ١٩٧٨/١٢/٢٠ أن الرئيس الفرنسى « جيسكار ديستان » ناشد الشعب الفرنسى العمل على كثرة النسل، وحذرهم من مغبة الاقلال من الانجاب لان المؤشرات تدل على ان الشعب الفرنسى فى اقلال مضطرد (انظر جريدة الاخبار القاهرية فى ١٩٧٨/١٢/٢١) .

الشرق والغرب فى الوقت الحاضر – انه سيتضاعف عدد السكان فى العالم الاسلامى فى مدى عشرات قليلة من السنين ، ولا ينبغى ان ينسى ، ان الداعين الى الاخذ بأسباب نمو القوة البشرية – عن طريق تشجيع النسل ومحاربة الدعوة الداعية الى تحديده – يزيدون يوما بعد يوم ، وأن تفوق أوروبا فى التكنولوجيا على الشرق ، ينقص عاما بعد عام ، لان الشعوب الاسلامية اتجهت الى تطوير نفسها وبناء حضارتها الحديثة بالوسائل الهندسية الأوروبية ، وتكرس جهودها اليوم لزيادة انتاجها ، يساعدها فى ذلك وجود المواد الخام بكثرة فى بلادها . فلو رتب المرء ما يملك الشرق من اسباب القوة ، لبدا له ان الخصوبة البشرية ، التى تسبب النمو السريع فى زيادة عدد السكان ، تأخذ مكانا لا يستطيع المرء اغفاله بسهولة ، فكثرة السكان لها آثارها البعيدة ، لانها – وان كانت أبعادها لا ترى بالعين المجردة فى الوقت الحاضر – ستحدد بطريقة حاسمة المستقبل السياسى للعالم الاسلامى ، وستكون من اهم العوامل التى يرتكز عليها أمنه وسلامته .. (١) .

.. كانت – ولا تزال وستظل – الخصوبة البشرية فى منطقة العالم الاسلامى سببا فى أصابة الأوروبيين بالقلق والخوف على وضعهم الدولى فانبث دعاتهم فى المجتمعات الاسلامية ، يروجون لتحديد النسل زاعمين ان كثرة الانجاب من علامات التخلف الحضارى ، وان كثرة الاولاد تجلب الفقر وتورث التعاسة ، وان الزيادة المطردة فى تعداد الأمة تبتلع الموارد المادية للدولة ، الى درجة العجز والافلاس ، وهم يعلمون تماما ان ثروة العالم الاسلامى لو تركت له ، لزادت عن حاجته ، ولاستطاع بها – مع امكاناته البشرية الهائلة – ان يبنى قوة عالمية :

---

(١) راجع كتاب « الاسلام قوة الغد العالمية » الباب الرابع .

« اثبتت الابحاث ، التى أجريت بعد اكتشاف البترول فى غرب آسيا ان وجوده لا ينحصر بأى حال من الاحوال ، فى حقول جنوب ايران وبلاد ما وراء النهرين ، وأكدت وجود حزام عريض من البترول ، يمتد من الشاطىء الغربى للبحر الاحمر حتى الخليج الفارسى ، ومنه عبر حقول الزيت فى جنوب ايران ، مجاوزا شمال شرق ايران ـ وكذا شماله ـ الى أفغانستان · وتشير الاحتمالات أنه لم يكتشف حتى الآن من هذا الحزام البترولى سوى جزء صغير جدا ، وعليه فلم تستوعب بعد الثروة البترولية فى العالم الاسلامى . تلك الثروة التى تمده ، كما تمد دوله بأسباب القوة وبمقومات الاعتماد على النفس ، والتحرر من النفوذ الاجنبى · وليس من السهل ان يدرك المرء فى الوقت الحالى ما يحدثه البترول من تغييرات سياسية واجتماعية فى هذه المنطقة من العالم · »

ولذا فقد تكالبت عليها القوى الاستعمارية ، لتسلب منها هذه الثروة ، وكان هجومها شرسا لان حياتها متوقفة على امكانيـــة السيطرة على منابع البترول ـ وغيره من المواد الخام ، التى يملكها العالم الاسلامى ـ فهو عصب الثورة الصناعية التى تقوم عليهـا النهضة الأوروبية ·

« شهد الشرق الاسلامى هجوما أوروبيا ، اقتحمت عليه القوى الأوروبية دياره ، فخضع لها ، وأعطاها امتيازات ،فتحولت المنطقة الاسلامية الى ساحة للبحث الشامل والمنظم للتوصل الى امكانية تطويرها واستخراج المواد الخام من ارضها ، لان النهضة الصناعية فى أوروبا تفتقر اليها لذلك انطلق الأوروبيون يبحثون عن المواد الخام فى أرض الشرق الاسلامى ليغذوا بها مصانع أوروبا الجائعة · اتخذوا هذه المنطقة كلأ مباحا لأن المبادىء الأساسية فى الاقتصاد العالمى ، جوزت آنذاك ، أن تعطى البلاد المستعمرة ـ سواء كان استعمارها

كليا أم جزئيا والمنطقة الاسلامية كانت موزعة بين هذين النوعين من الاستعمار ـ ما تملكه من المواد الخام لدول غرب ووسط أوروبا ، التى قطعت شوطا كبيرا فى تصنيعها وتقوم هذه الدول بتصنيع ما يورد لها ثم تغمر به اسواق الكرة الارضية ٠

لم تهدأ مقاومة المسلمين للاستعمار الغربى ، حتى اضطر الى تغيير استراتيجيته ، فاعترف بالاستقلال الســـياسى للأقطار الاسلامية ولكنه ظل مسيطرا على المجالات الاقتصادية ٠

يقول بعض المهتمين بشئون الشرق الاسلامى :

« تشير سيطرة شركات البترول الكبرى ، وتسلطها فى العالم الاسلامى على ان الاستقلال السياسى لهذه المنطقة ، لن يكن سوى واجهة خداعة ، اذ تدل الحقائق على ان منطقة الشرق الاسلامى لن تخرج خروجا كليا من دائرة الوصاية الأوروبية ، وأن ما يبدو فى المنطقة من ظواهر يعتقد البعض انها مقدمات لقوة نامية ، ليس الا احتمالات لم تخرج الى الواقع بعد ، ويحتمل عدم وجودها ، ويستدلون على ذلك بأن استعمار الدولار يحل ـ بسرعة متزايدة ـ محل استعمار الارض ٠٠ وان الرقابة السياسية استبدلت بالرقابة الاقتصادية ، وبذلك رسخت سيادة الغرب على الشرق ـ وان تغيرت صورتها ـ ولم تضعف ، ولم تهن وسوف تمتد زمنا طويلا » ٠

استعادت الدول الاسلامية سيطرتها على منابع البترول ، ولكن المفكرين الغربيين ما زالوا يطلقون الصيحة تلو الاخرى ، من مغبة انفراد الدول الاسلامية فى التحكم فى مصادر الطـــاقة ، ويدفعون ساستهم الى اتخاذ الوسائل ، ضد ما يمكن ان يحدثه هذا الوضع من تهديد للمصالح الغربية ٠

« ان تصفية امتيازات البترول فى غرب آسيا وانتقال تركة الاستعمار الدولارى » الى الدول الاسلامية تديرها ذاتيا ، بحيث لا تحتاج الى مساعدة اجنبية ، فى توجيه انتاجها ، أى انها تتصرف فى هذه التركة دون الخضوع لادارة اجنبية ٠٠ سوف يحدث هذا فى الوقت الذى يصبح فيه — طبقا لما أثبتته الابحاث الدقيقة — مخزون البترول الامريكى ضعيفا ويوم يقل الانتاج الغزير لهذا البترول (أى الامريكى) الذى يغزو أسواق العالم اليوم (أى فى عام ١٩٣٩ م) ، سيحتل البترول الاســـــلامى (حسب التقديرات المتحفظة جدا) — بعد اكتشاف باقى حقول الحزام البترولى فى غرب آسيا — مركزا دوليا هاما ، وسيصل انتاجه رقما لم يعرف بعد ، ولا يستطيع الخبراء التكهن به لانه يفوق كل تقدير ٠٠ يجب ألا نغفل عن دلالة هذا التغيير وتأثيره اقتصاديا فى مركز العالم الاسلامى على مسرح التبادل التجارى العالمى » ٠

لم ينهب الاستعمار من ثروات العالم الاســـــلامى البترول فقط ، بل كل أنواع المواد الخام من حديد وفحم وقطن ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الخ ٠

وكانت — ولا تزال — هذه المواد مصدر اغراء ، دفع القوى الغربية الى الاستعمار السافر للعالم الاسلامى ، ودفع — ولا زال يدفع — القوى الشيوعية الى التغلغل داخل المجتمعات الاسلامية ، لفرض سيطرتها المقنعة على مراكز الحكم والتوجيه ٠

دفـــع :

— الاضطراد المستمر فى زيادة عدد السكان بين المسلمين ،

ـ والثروة الوفيرة ، التى يكشف عنها البحث كل يوم فى اراضيهم ،

ـ والمركز الاستراتيجى الفريد فى المواصلات العالمية ،

الاستعمار الغربى الى شن الحرب على العالم الاسلامى فى جميع الميادين :

ـ عسكرية ، وسياسية ، واقتصادية ، وفكرية ـ كى يسيطر عليه ويخضعه لرقابته ٠ وشمل الصراع جميع أقطاره ، فقد كان الاستعمار يعتبر انتفاضة المسلمين فى الهند تهدد مركزه فى الشرق الاوسط ، وكان يرى أن نجاح شعوب الشرق الاوسط فى الحصول على الحرية ، يهز الأرض من تحت أقدامه فى الهند والمناطق الاسلامية الاخرى ، ولذا فقد شملت خطته اضعاف المسلمين فى كل الاقطار ، واستعمال كل الاسلحة للوصول الى هذا الهدف ، استخدم القوة العسكرية ، وباشر الحصار الاقتصادى وتدخل فى البرامج التعليمية، وشجع اناسا على نشر دعوات فى المجال الدينى ، لتخريب العقيدة الاسلامية ، بغية ابعاد المسلمين عنها ، لانها مصدر قوتهم ٠

★ ★ ★

ثالثـــا ـ رفض المسلمين السيطرة الاجنبية :

تشترك جميع الشعوب فى غريزة رفض السيطرة الاجنبية ، ومقاومة النفوذ الاجنبى ، ولكن درجات المقاومة ، وحدتها تختلف من شعب لآخر ٠

فمن الشعوب من يتخذ المقاومة السلبية طريقا للخلاص من قبضة الأجنبي ٠

ومنهـــا من لا تســـتمر مقاومته الايجابية زمنا طويلا ، ثم يخضع ، وينفذ ما يرسمه له السادة الجدد ٠ بل ويقلدهم في مختلف نواحي حياتهم الثقافية والاجتماعية ، فتذوب شخصيته في تقاليد المستعمرين الجدد ٠

ومنها من لا تهدأ مقاومته ، وان طال الزمن ، وامتد الدهر ببقاء المستعمر على أرضه ،واشتد طغيان القـوة الغاصبة لبلده ٠ وان سكنت مقاومته ، فليس الا لتضميد جراحه ، وتجميع قواه ، لبدء جولة جديدة ضد من سلبه حريته وأرضه واستحل حرماته وثرواته ، وخطط لتخريب افكاره ، وتوهين عقيدته ٠

وجد هذا النوع من الشعوب في جميع الحقب التاريخية ، ولكن الشعوب الاسلامية ضربت المثل الاعلى في رفض الســـيطرة الاجنبية ، اذ لا يوجد في تاريخ البشرية ، شعب تكالبت عليه القوى العظمى في العالم ولم تتفق فيما بينها على شيء مثل اتفاقها على القضاء على عقيدة المسلمين ، ومع ذلك أبى المسلمون الاستكانة للهزيمة ، والاعتراف للغالب بأي حق في بلادهم ، فاستمروا في كفاحهم قرونا يصارعون العدو مرة ، ويصرعهم اخرى ، وكلما ظن المستعمر ان الساحة قد خلت من المقاومة اندلعت من بين القوى المتهالكة تحت سنابك خيله ، نيران تقض مضجعه وتبدد أحلامه ، وتؤكد له من جديد ، أن الصراع بين المسلمين والمستعمرين ــ وبتعبير أدق بين المسلمين وبين من لا يدين بدينهم من المستعمرين الغاصبين ــ لن ينتهي بهزيمة المسلمين في معركة لانهم لا يرضخون للهزيمة ابدا والاحداث في المنطقة الاسلامية تؤكد هذا ، يقول « شمتز » :

« ٠٠ وكان زحف القوات الأوروبية على فارس متمما لعملية اخضاع

المارد الاسلامى وقضاء على حريته السياسية ، فتهاوى هذا التمثال العملاق ، وخفت صوته ٠٠ فاعتقدت الدول الغربية انها وضعت يدها على غنيمة خالصة لها ، لا ينازعها احد فى التصرف فيها ، ولا يقف فى طريقها ادنى العقبات ، فقيادة شعوب المنطقة ستكون سهلة ــ لأن القوى الوطنية ماتت ، أو فى طريقها ــ واستغلالها مباح ، فلن يستطيع الموتى دفاعا ، ولا احتجاجا ٠٠ ثم بدأت الدول الغربية توزع الغنائم ، وفى هذه اللحظة بدأ فى الافق : أن القيود التى كبلت الشرق عشرات السنين ، قد تمزقت ، نتيجة تفاعل قوى كامنة فى طبيعة هذه الشعوب لا يعرفها الا من درس عقائدها ، واخلاقها ، وتاريخها ، وغاص فى مجتمعاتها بحثا عن هذا الاباء للهزيمة ، وهذا الرفض للسـيطرة مهما كانت قوة المستعمر وجبروته :

ارتفعت اصوات هذه القوى ، وتساوت مع الدول الغربية ، المدعمة بالسـلاح ، وفى دعوتها ارث هذه المملكة ــ اى المملكة العثمانية ــ التى تهاوت فى الحرب العالمية ، وتطاولت هذه القوى فانتزعت لنفسها حق المساواة مع القوى الاستعمارية فى امتلاك هذه التركة ، التى خلفتها الحرب العالمية (الاولى) ٠

لقد خرج من أودية الانقاض التى خلفتها الحرب العالميـة فى منطقة العالم الاسلامى ، شبح تمطط ــ كما تقول الاسطورة : مات الطائر وحرق ٠٠ ثم خرج من التراب ، الذى خلفته النار طائر اسرع من الذى مات ــ فى كل مكان ، باذرا بذور الثورة ضد الاطماع الاستعمارية ، داعيا الى الاحتماء بالعقيدة ، وتجميع المسلمين حول ايديولوجية اسلامية جديدة ، لمواجهة الخطر القادم من الغرب ، وللقضاء على دعوى الدول الغربية ، بأن لها حقـا فى ارث هذه التركة ، التى خلفتها السلطنة الاسلامية فى تركيا ٠

قد تبدو الخلافات على سطح العالم الاسلامى ، اذا ما سيطرت الروح المادية على تصرفات قادته ، وحكامه ، ولكن الشعوب تشعر برباط الوحدة الاسلامية الذى يربط بينها فى المصير ، وان اختلفت البيئات جغرافيا ، وتعدد اللسان لغويا ٠ ومن هذا المنطلق تتجاوب الاصداء فى جميع جنبات الاقطار الاسلامية عندما يتعرض اقليم لبطش الاجنبى ، فيهب الجميع لمساندة اخوانهم والوقوف معهم فتتشابك أيديهم ويقفون جنبا الى جنب ، لتحقيق هدفهم المشترك٠ ألا وهو التخلص من الاستعمار وبناء قوة اسلامية ــ عالمية ــ يخشى بأسها الجميع ٠

« ايقظت الوحدة الفكرية للاسلام فى جماهير هذه المنطقــة الشعور بوحدة المصير فانبثقت حركات متعددة تستهدف عودة القوة العالمية للاسلام ، وقد جمعها حول هذا الهدف الموحد : العقيدة المشتركة . التى جذبتهم ــ وما زالت ــ نحو غاية واحدة ، على الرغم من اختلاف اسلوبهم ، وتباين طرقهم . للوصول الى هذه الغاية ، وقوى التقارب باشتراكهم فى معاداة الغرب ، وانتشار هذه العداوة للقوى الاستعمارية فى كل مكان فى الشرق ، فأينما وليت وجهك قابلتك مظاهر البغض للدول الأوروبية ٠ ولمست أثر ذلك فى جميع نواحى الحياة الفردية ، وفى اسلوب الدعاية لدى جميع الهيئات السياسية والاجتماعية ٠

أضفت الحيوية ــ التى احست بها الجماهير ، نتيجة توحيد الاهداف الرامية الى احياء الاسلام ، كواجهة للدولة الحديثة ــ قوة على الشعور بوحدة المصير ٠٠ فقادت شعوب الشرق الاسلامى نضالا ــ انتشر على كل رقعة من بقاعه ، شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ــ ضد الدول الاستعمارية ، كى تحافظ على وجودها ٠٠ وساعد هذا النضال المشترك ــ ضد قوى اجنبية ، اجتمعت على

استغلال هذه المنطقة ، واستنفاد ثروتها – على ظهور قوى قوية ، كان لها اثر فى التماسك الجماعى ، وكسر حدة الاحتكاك الذى كان يمكن أن يقود الى نزاع شعوبى » ٠

من النادر أن يظهر كتاب أوروبى عن الشرق ، دون أن يحتل الحديث فيه عن الاسلام اكبر مساحة منه ، ودون ان يحذر مؤلفه رجال السياسة من الاسلام كقوة تهدد أوروبا ، مبينا لهم أنه – أى الاسلام – الدافع الاول لشعوب المنطقة فى رفضهم السيطرة الأوروبية :

« ان المحرك الاول للقلاقل العربية وثورات الشعب ضد المخطط الاستعمارى فى فلسطين ، هو الدين ٠ ويبلغ الحماس ذروته ، ويصل الغضب الى درجة الغليان فى يوم الجمعة ، حيث يجتمع آلاف المصلين فى المسجد ، يستمعون الى خطبة الجمعة ، التى غالبا ما تكون موجهة الى اثارة العواطف الدينية فيهم فيخرجون غاضبين على اولئك الذين يتعاطفون مع الصهيونية ، ويؤيدونهم فى اقامة وطن لهم على هذه الارض العربية ٠ وقد فهم الزعماء السياسيون هذا الجانب فكرسوا جهودهم لايقاظ الشعور الدينى لدى المسلمين. لخدمة الاهداف السياسية فاشترك علماء الدين فى الحركات الوطنية – وكان ذلك احد الاسباب التى جعلت بريطانيا تفكر فى موقفها بالنسبة لانشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين فتحاول اظهار التعاطف مع الجماهير العربية – وكانوا قادتها ، فقد تزعم شيخ له مكانة فكرية وروحية فى المجتمع ، الحوادث التى وقعت فى سنة ١٩٣٦ ، واستمد الفدائيون من هذه الزعامة قوة ، دفعتهم الى التفانى فى سبيل قضيتهم وعدم المبالاة بما يصيبهم ، لانهم يعتقدون :

ـ « أن الموت فى سبيلها شهادة يثاب عليها بالجنة »

فلم تهن عزيمتهم ، ولم تخر قواهم فى احلك الظروف ، وأدق المواقف ، ولم يفتروا لحظة عن تذكر الله ، والاتصال بعقيدتهم ، عن طريق أداء العبادات والاكثار من السنة وقراءة القرآن ٠

« ٠٠ وتعتبر المنطقة العربية . اهم المناطق التى بدت فيها ظاهرة العلاقة المتبادلة بين القوى الدينية ، والقوى الوطنية ، وقوة تماسكها لان كلتا القوتين ، اللتين تجتمعان فى القومية الاسلامية متكافئتان ، ولان :

« ما يجرى على الارض العربية ، يحدث صدى فى كل ارجاء العالم الاسلامى فهذه المنطقة بالنسبة للمسلمين بمثابة القلب ، تتوقف على ضرباته حياة باقى الجسد ، لذلك يتأثر المسلمون فى جميع انحاء الكرة الارضية ، بالاحداث الجارية على ارض هذه البقعة من وطنهم الاسلامى ، ان مدا أو جزرا ٠ »

« ٠٠ اتحدت القوى القومية مع الاتجاهات الدينية فى العالم الاسلامى ، وكان تأثير الروح الدينية عليها متفاوتا بين قطر وآخر ، قلة وكثرة ، غير أن الاقطار كلها يجمعها طابع واحد ، ألا وهو تجميع الاتجاهات الوطنية فى اطار القومية الاسلامية ، وهذا يتطلب مزيدا من التكاليف واستمرار العمل المشترك فى كل مجالات الحياة . فهو التقاء يبعث الروح الجماعية بين الشعوب الاسلامية ـ من مراكش حتى حدود الهند والصين ـ ويحيى فيها الشعور بوحدة المصير ، الذى يحتم على المسلمين التجمع حـــول رباط شرقى اسلامى ٠

« ويلتقى الشعور بوحدة المصير ــ الذى بعثته القومية الاسلامية فانتشر بين المسلمين انتشارا واسعا وسريعا ــ طاقته السحرية ، وقوته الجبارة من مكة ، من تلك المدينة ، التى أطلق عليها ذات يوم « قلب الاسلام » بينما عرفت القاهرة بأنها : « رأسه » ، والقسطنطينية بأنها « يده » ٠

« هنا فى مكة يجتمع المسلمون من كل ارجاء العالم مرة فى السنة اثناء الحج الاكبر ، يلتقون مع بعضهم بعد ان يطرحوا عنهم كل اثر اجنبى ، خارج المنطقة الحرام ، المضروبة حول مكة ، ينسون قومياتهم وأوطانهم ويتذكرون فقط حقيقة واحدة ٠ أخوة فى الله ، تجمعهم عقيدة واحدة وكتاب واحد ، ليس للفوارق الاقليمية مكان بينهم ، وهم يد على من سواهم ٠

« فمكة هى المحل الذى يشعل العاطفة الدينية ، ويبعث فيهم روح تعاليم كتابهم المقدس (القرآن الكريم) وهى مركز الاشعاع الروحى والفكرى ، حوله تحوم أفكارهم ، ثم تنبعث قوة محركة لكل الطاقات فى ارجاء العالم الاسلامى ٠٠

« تحت سماء مكة ــ المدينة المحرم دخولها على غير المسلم ــ وحول الكعبة ، التى يقصدها المسلمون كل عام يتآمر ذلك العالم المنطوى على نفسه فى هذا المكان ،المتلهف على الوقت ،الذى يستعيد فيه عصره ٠٠ يتآمر ذلك العالم ضد اولئك الذين لا يجوز لهم دخول هذه المنطقة ، ويمكن للمرء ان يتخيل ان فى هذه المدينة المغلقة امرا يدبر ، وحيلا سياسية تحاك وقرارات ذات أهمية للعالم البعيد تتخذ ، وان المجتمعين خلف الكواليس لا يتناولون فقط بحث المسائل الدينية فى العالم الاسلامى ، بل يناقشون مشاكلهم السياسية ٠

« اذا لم تكن هذه هى الحقيقة ، فلم تنبعث من ارجاء مكة ، تيارات سياسية ، لها اثرها العميق فى العالم الاسلامى ٠ فلا اقل من ان تلعب هذه المدينة دورا غير مباشر فى توجيه الجـــــو السياسى ، اذ الشعائر الدينية ، التى تقام فيها تطبع المسلمين بطابع خاص ، يدور فى جوهره حول التشدد فى عداء البلاد الغربية والوقوف فى وجه الاستعمار الأوروبى » (١) ٠

★ ★ ★

لم تستطع القوى العسكرية الاستعمارية احراز نصر عسكرى شامل على المقاومة الاسلامية ، اذ لم تتمكن من القضاء التام عليها ، وظل نشاطها فى مناطق العالم الاسلامى مسموعا ومرئيا ، وان فتر احيانا تحت ضغط التفوق العسكرى للمستعمر ، فانها كانت دائما شوكة فى جنب المستعمر ، لا تدعه يهدأ ، أو يغمض عينيه ، مما جعله يعتقد اعتقادا جازما أن القوة العسكرية ليست هى الوسيلة الوحيدة لاخضاع العالم الاسلامى ، فأبدى اهتماما أكثر بنواحى اخرى تؤدى الى اضعاف المصدر الذى يدفع المسلمين الى مقاومة الاجنبى ، ألا وهو الدين ٠٠

وسلك فى الوصول الى هذا الهدف مسالك متعددة :

١ ــ الدراسات الاستشراقية :

كان الغرض من انشاء الدراسات الاستشراقية ، معرفة طبيعة اخلاق وعادات وتقاليد الشعوب المستعمرة ، ليسهل التعامل معها ، وتطويعها للادارة الاجنبية ، ثم استخدمت فى الشرق الاسلامى كوسيلة احماية الاستعمار عن طريق تهيئة نفوس المسلمين لقبول

---

(١) راجع كتاب « الاسلام قوة الغد العالمية » الباب الثالث ٠
(٤ ــ أثر البيئة)

النفوذ الأوروبى ، والرضا بولايته ، فنزع المستشرقون فى دراستهم للاسلام الى اضعاف القيم الاسلامية ليضعفوا فى المسلم تمسكه بالاسلام ، ويبعثوا فى نفسه الشك فيه كدين ، وليوهموه ان الاسلام لم يعد منهجا سلوكيا ، يتفق وطبيعة الحياة المعاصرة :

(أ) فشرحوا مبادىء الاسلام على نحو يحط من قدرها بين مثيلاتها فى الاديان الاخرى ،

اذ يتحدث رينان عن عقيدتى « الجبر والاختيار » فيقول :

« المسائل الاساسية فى كل دين ، هى التى تربط بالقدر والمغفرة والحساب ، وهى كلمات ثلاث ، مصبوغة بصبغة دينية ، تلقى فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها ، مع انها من الامور التى ينبغى الوقوف عليها ، والعلم بها ، مهما صعب منالها ، وتعذر مرامها ، ان الدين هو الوسيلة التى تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية ، أو بعبارة أخرى ، الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق ٠

« اذ تقرر ذلك ، فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى ارادته السرمدية ، بحيث لا يحيد عما تأمره به هذه الارادة ؟ أم للانسان متى تم خلقه ارادة خاصة يعمل بحسبها ، واختيار مستقل لا يستمد من اختيار أسمى منه ؟ وهل للانسان الذى خلقه الله وسواه ، ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق فى ذاته ؟ أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون ، والمسببة لوجوده فيه ؟

« وفى دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية ، التى لم يوفق دين من الاديان ، ولا مذهب فلسفى الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل ، مع ان البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامى ، لم يكن بالامر الحديث ، اذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين ، فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة المتأخرين وعلمائهم ٠

« وغاية ما عرف منذ الاعصر السابقة الى الآن ، انه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ٠

● فالاول منها يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، وجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن ٠

● ويذهب الثانى الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربى من الذات الالهية ، بما فطر عليه من ايمان وارادة ، وبما آتاه من أعمال صالحات وحسنات ٠

« والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الاول ، هى تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى فؤاده ، وتثبيط همته وايهان عزيمته ٠

بينما تسوق نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى الى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى ٠

ومن الامثلة على الفريقين :

البوذيون الذين يدينون بدين يقضى عليهم بالتجرد ، اذ من قواعده ان الانسان والكون يفنيان فى الذات الالهية ٠

وقدماء اليونان ، الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الاله بالانسان فى اوصافه المادية وقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطل » يمكنه أن يصير فى عداد الآلهة بحسناته وخبراته ٠

« وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان : احداهما ربانية ، والثانية بشرية ، تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين ، ولكن بتلطيف فى التناقض ٠

أما الأولى (الديانة الربانية) فهى الديانة المسيحيـــــة ، الوارثة بلا واسطة آثار الآريين (١) والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية وان كانت مشتقة منه ، وغصنا من دوحته ٠٠ ومن خصائص هذه الديانة (المسيحية) ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية ٠

---

(١) أليست البوذية ديانة الآريين ؟

كيف تكون المسيحية مقطوعة الصلة بالسياسة ، أليس عيسى عليه السلام ساميا ؟ أليس « بولس » وهو المؤسس لدين الكنيسة الموجود الآن كما يقول علماء الاديان ساميا ؟ أليس « بطرس » ـ وهو رمز الكنيسة الكاثوليكية ورائدها ـ ساميا ؟ ولو ذهبت أعـــدد علماء الكنيسة القديمة وروادها والمؤسسين لها ، لوجدت معظمهم لا ينحدرون من الجنس الآرى مما يدل على ان تقسيم المستشرقين على هذا النحو مفتعلا ، ليصل به الى غرضه وهو الطعن على الاسلام حسب تصوره هو ، لا بحسب الواقع ٠

على حين أن الديانة الثانية (البشرية) وهى الاسلام ،المشوبة بتأثير مذهب السامية ، تنحط بالانسان الى أسفل الدرك ، وترفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له ٠

« هذان الميلان المختلفان يظهران ظهورا واضحا فى الاعتقاد الاساسى لكلتا الديانتين : وهو أصل الالوهية ٠ أما المسيحى فيذهب فى الاصل الى الثالوث ــ أى ان الاله الاب أوجد الاله الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس ، وعليه فيكون المسيح الها وبشرا ٠٠ هذا الثالوث السرى ، المشتقة اصوله من ضرورة اله بشرى ، يمحو ذنب الجنس البشرى ، ويفديه من الخطيئة ، التى اقترفها ، يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديدا حيث يقول : لا اله الا الله ٠

غير أن ادراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى ، وأجلب للثقة ، اذ يحملهم على اتيان الأعمـال التى تقربهم الى الله ، حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، فى حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى فى الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ، ولا صـلة فيه ســـوى متابعة الصلوات والدعوات ، والاستغاثة بالله الاحد الذى هو مستودع الآمال ! ولفظ الاسلام معناه : « الاستسلام المطلق لارادة الله » ٠

« ترى الديانتين ، أو بعبارة اخرى ، المدنيتين : المسيحية والاسلام احداهما بازاء الاخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، اذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية والسامية ،ومنهما استمدتا جانبا من العقائد والمذاهب والآداب ٠ فهما اذن متداخلتان من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخلق بينهما

شاسعة فى الحقيقة : من حيث البحث فى القدرة الالهية ، والحرية البشرية » (١)

يبدو التحايل لتشويه الحقائق واضحا فى هذا الكلام ، اذ كيف يتصور باحث منصف ان الاسلام لا يدعو الى العمل ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على العمل لتحسين المستوى المادى . وأخرى لصقل روح الانسان حتى لا يتحول الى حيوان لا هدف له الا شهوات البطن المدمرة للفرد والمجتمع ، اذا أطلق العنان لها دون ضوابط وأحكام ٠

● ان الباعث على هذا التشويه ، ليس الا محاولة زعزعة عقيدة المسلم فى المبادىء الاسلامية لتحقيق جزء من المخطط الكبير الرامى الى قطع الصلة بين المسلم واسلامه ، حتى يسهل اخضاعه وتطويعه للادارة الاجنبية ٠

(ب) وتناولوا أحكامه فى مجال المال بأسلوب ينم عن قصدهم (أى المستشرقين) وميلهم الى تشويه تعاليم الاسلام للحد من انتشاره بين شعوب الارض ولتوهين الرباط بين المسلمين وعقيدتهم٠

● فهم يدعون فى تفسيرهم لمبدأ الزكاة ، ان الاسلام يرى أن الاموال المادية من اصل شيطانى نجس ، ولذا فلا يحل للمسلم ان يتمتع بها الا اذا طهـــرها ، بارجاعها الى الله ، أى باخـــراج

---

(١) تاريخ الامام : ج ٢ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩ ، نقلا عن : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، للاستاذ الدكتور : محمد البهى ص ٥٣ ـ ٥٦ ٠

الزكاة (١) منها ، ويردد المسيحيون القائمون على الدراســـات الاسلامية فى الوقت الحاضر هذا المعنى ، ففى العدد رقم ٨٠ للسنة الثامنة والثمانين لصحيفة « The montreal Star »
بتاريخ ٥ ابريل سنة ١٩٥٦ ، تحدث **أب دومينيكانى مقيم فى** مصر — وكان يقوم بالقاء محاضرات عن علم الكلام الاسلامى **بجامعة** مونتريال — عن النظرة الاسلامية فى الحياة فقال :

« ان المســـــلمين يتجنبون الناس ، الذين يشتغلون بالمال ويعتبرونهم اقرب للكلاب منهم للبشر » (٢) ٠

هذا التصوير لمبدأ من المبادىء الاسلامية ، الذى سبق نظام الضمان الاجتماعى — الذى تفخر به الامم المتقدمة فى العصر الحديث — بأكثر من اثنى عشر قرنا ، ينفر شعوب غرب أوروبا وامريكا من الاسلام لان المال يحتل المركز الرئيسى فى حياتهم المعاصرة ، فهو عصب حضارتهم الحديثة ، فاذا ما دعى الى التخلى عنه — كما يوحى بذلك كلام هذا الاب الدومينيكانى — لن يستجيب ، وبالتالى سوف يصرف النظر عن الاسلام ويقاوم رغبته ، اذا ما دعته نفسه

---

(١) يبدو أنه أخذ هذا المعنى من قوله تعالى « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** » وهذا فهم سطحى ، اذ ليس المقصود فى الآية تطهير المال لان النفس الجشعة التى تكنز الذهب والفضة ، وتترك اخوانا لها يعانون من ألم الفقر والحرمان دون أن تتحرك فتمد لهم يد المساعدة ، هى نفس مريضة ، خبيثة ، نجسة ، ينبغى ان تعالج ، وعلاجها يكون بغرس روح التعاون والرحمة والشفقة بالبائسين فيها ، كى تعطى هذا الفقير ما يعينه على مواجهـــــة الحاجات الضرورية فى الحياة ، ويتمثل ذلك فى اعطائه نصاب الزكاة٠

(٢) الفكر الاسلامى الحديث ص ٥٧

يوما الى معرفته والبحث عن امكانية اعتناقه دينا ، او اتخاذ مبادئه اسلوبا فى الحياة .

وتحاول الدوائر الاستعمارية ترويج هذا الكلام فى المجتمعات الاسلامية كى تبعد المسلمين عن دوائر المال ، لتكون لقمة سائغة لها ومما يؤسف له ، ان هذه الفكرة راجت فى المجتمعات الاسلامية فى القرن الماضى واوائل هذا القرن ، فاستولى على التجارة يهود وأوروبيون فكانت لهم الكلمة الاولى والاخيرة فى الاعمال المصرفية فى العالم الاسلامى وتحكموا فى اقتصاد المسلمين .

(ج) وصوروا تعاليم الاسلام بانها دعوة الى العنصرية :

فـ « قوامة الرجل على المرأة » تخلف حضارى ، يعيد الى الاذهان صورة استعباد المرأة فى القرون الوسطى ، فهو يرفع الرجل الى الذروة ، ويهبط بالمرأة الى هاوية الاذلال والضعة .

و « عدم قبول المسلم لولاية الاجنبى » هو عدم تعاون مع الشعوب الاخرى .

و « الجهاد » اعتداء ، أعطاه الاسلام صفة شرعية ودينية كى يدفع به المسلم لمهاجمة غير المسلم فى وقت أمن فيه على نفسه وعرضه .

و « عدم زواج المسلمة بغير المسلم » فكرة عنصرية قائمة على تمييز الشعوب بعضها على بعض .

و « فكرة العودة الى القرآن » دعوة الى الرجوع الى الحياة

البدائية ، التى كانت للجماعة الاسلامية ، لانها لم تكن فى نظرهم ــ طبقا لخطط التشويه لتعاليم الاسلام ــ سوى حياة بدائية ٠ وطبقا لهذا الفهم ينكرون على من ينادى بهذه الفكرة دعوته الى الاصلاح ، اذ الاصلاح فى نظرهم هو التطور واتباع الاساليب الغربية الحديثة ٠

٢ ــ المدارس الاجنبية :

● أدرك المستعمر أن تأثير الدراسات الاستشراقية ــ وان زعزع العقيدة عند بعض المسلمين ، المثقفين ثقافة غربية ــ فى المجتمع الاسلامي جزئى ، فهو محصور فى المجموعة ، التى تعرف اللغات الاجنبية ، ولذا فقد تناولت الخطة الاستعمارية انشاء مدارس فى المجتمعات الاسلامية ، تعلم ابناء المسلمين الثقافة وتلقنهم الفكر الاجنبى ، وتعدهم اعدادا عاليا لتولى مقاليد الامور فى بلادهم ، وهم بحكم تشربهم الثقافة الاجنبية فى هذه المدارس ، سوف يتبنون منهجه فى التعليم والثقافة ، وفى اسلوب الحكم والسياسة ، وبذلك يكونون خير ممثل للاستعمار ينفذون ما عجز هو عن تنفيذه بطريق مباشر ٠

● أعطيت هذه المدارس من الامكانات ما جعلها تتبوأ المكانة الاولى فى قائمة المعاهد العلمية ، فمدرسوها على درجة عالية من الكفاءة ، وتطبق فى ادارتها احدث النظم التربوية والادارية ويعتنى بمظهرها عناية ، تلفت نظر المواطنين اليها ، فمبانيها على احدث طراز ، وهيئة طلابها تسر الناظرين ، والتزامهم بالسلوك والآداب الاجتماعية يشد انتباه المتعاملين معهم ، وفضلا عن ذلك فقد رسم الاستعمار من الخطة ، ووضع من اللوائح ما يمكن المتخرجين من هذه المدارس من تولى أسمى المناصب ، وارتقاء أعلى الدرجات فى

الدولة ، وبهذا استطاع المستعمر ان يسلم مقاليد الحكم والتوجيه لابناء صنعهم بيده ، فغزاهم بثقافته ، ونماهم فى رحاب افكاره ، فكانت النتيجة ان تنكر معظمهم للتعاليم الدينية ، ونظر اليها والى الداعين لها نظرة استهزاء واستنكار ٠

● ماذا فعل المسلمون ازاء هذه الظاهرة ؟

● حاربوها بالخطب الرنانة ، ومقالات فى صحف ومجلات لا تصل الى اولياء امور من ارسلوا الى هذه المدارس ، ولو وصلت الى بعضهم ما اثرت فيه لانهم يريدون ان يربوا ابناءهم تربية عاليـــة ٠

● مأين البديل لهذه المدارس ؟

● لو أنشأ المسلمون مثيلا لها فى المستوى الثقافى والتربوى لانصرف معظم الناس عن ارسال ابنائهم الى هذه المدارس الاجنبية، ولكنهم اكتفوا بالاحتجاج الســـلبى ، اللهم الا بعض محاولات ضئيلة ، بذلت فى هذا المجال ، وأقصد بها ما قامت به الجمعية الخيرية الاسلامية فى مصر ، ولكن حتى هذه المحاولات قضى عليها أيضا ، وضمت مدارس الجمعية الخيرية الى الدولة ، فساء حالها وانخفض مستواها وظلت المدارس الاجنبية تحتل المكان الاول فى مستوى التربية والثقافة ٠

● وما زال المسلمون يجأرون بالشكوى ، ويصرخون ، ولا يجدون سوى الخطب ومقالات الوعظ ، التى تحذر من ارسال ابناء المسلمين الى المدارس الأجنبية ، أما العلاج العلمى ، فلا يجد آذانا صاغية ، وأذكر أننى شاركت فى مؤتمر اسلامى عقد فى احدى الدول

العربية ، وكنت عضوا فى لجنة الغزو الفكرى ، فاقترحت على اللجنة أن توصى بانشاء مدارس اسلامية فى مستوى المدارس الاجنبية حتى يجد المسلم الذى يريد لابنه هذا النوع من التعليم ، مكانا فى مؤسسة علمية ، غير خاضعة للفكر الاجنبى ، ووافقت اللجنة على هذا الاقتراح ، ولكن لجنة الصياغة العامة فى المؤتمر أهملته .. لماذا ؟ .. ولاننا لم نبلغ بعد المستوى المطلوب للتخطيط العلمى لمواجهة الفكر الاجنبى ، فنحن لم نتعد بعد مرحلة الخطب الرنانة ، لكسب الشعبية الجماهيرية ، وان كان على حساب فائدة كبرى .. لا تدركها العامة — للاسلام والمسلمين .

* * *

٣ — ازدواج التعليم :

● اقتصرت منـــاهج المؤسسات التعليميـــة فى المجتمعات الاسلامية قبل المواجهة مع قوى الغرب الاستعمارى — فى عصر النهضة — على النواحى الدينية فقط ، فلم تتناول المشاكل العامة فى المجتمع ، الا من زاوية ترديد ما قاله السابقون ، فجمد الفكر الاسلامى . وتوقف عن التجديد والابتكار (١) فلم يستطع تقديم حلول للمسائل التى تظهر كل يوم على سطح الحياة الانسانية . كذلك عجز عن الخلق والابداع فى مجال العلوم والتكنولوجيا ، وعندما

---

(١) حتى فى المسائل الدينية البحتة ، لم يقم بواجبه كما ينبغى ، بل قصر فى ناحية وأهمل فى أخرى ، وقد عبر الشيخ محمد عبده عن قصور التعليم الدينى آنذاك أصدق تعبير فقال :

« اذا استقرينا أحوال المسلمين ، للبحث عن أسباب الخذلان لا نجد الا سببا واحدا : وهو القصور فى التعليم الدينى ، اما =

بدت اعراض الضعف — نتيجة هذا الجمود — فى مرحلة المواجهة ضهرت عدة محاولات للدفاع عن الشرق الاسلامى ضد الغزو الفكرى الغربى ، كان بعضها دعوات سياسية ارتكزت على القومية الوطنية

= باهماله جملة كما هو فى بعض البلاد ، واما بالسلوك اليه من غير طرقه القويمة كما فى البعض الآخر ٠

« أما الذين أهمل فيهم التعليم الدينى : فجمهور العامة فى كل ناحية ، لم يبق عندهم من الدين الا اسماء يذكرونها ولا يعتبرونها، فان كانت لهم عقائد ، فهى بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة ، من نحو : انه لا اختيار للعبد فيما يفعله ، وانما هو مجبور فيما يصدر عنه جبرا محضا — فلهذا لا يؤاخذ على ترك الفرائض ، ولا على اجتراح السيئات ، ومثل : ان رحمة الله لا تدع ذنبا حتى تشمله بالغفران قطعا ، لا احتمال معه للعقاب فليفعل الانسان ما يفعل من الموبقات ، وليهمل ما يهمل من المفروضات فلا عقاب عليه ، وما شاكل ذلك مما أدى الى هدم أركان الدين من نفوسهم واستل الحمية من قلوبهم ٠٠ ولا منشأ له الا عدم تعلمهم عقائد دينهم وغفلتهم عما اودع كتاب الله وسنة رسوله ٠

واما الذين اصابوا شيئا من العلم الدينى : فمنهم من كان همهم على أحكام الطهارة والنجاسة ، وفرائض الصلاة والصوم ، وظنوا ان الدين منحصر فى ذلك ، ومتى أدوا هاتين العبادتين على ما نص فى كتب الفقه فقد اقاموا الدين ، وان هدموا كل ركن سواهما ٠٠ ويشتركون مع الاولين فى تلك العقائد الفاسدة ٠

« ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع فى ابواب المعاملات ، متخذا ذلك آلة للكسب ، وصنعة من الصنائع العادية ، وأولئك٠٠

والاخرى تربوية ، اتخذت المنهج الحديث فى التربية اساسا للنهوض بمستوى الامة كى تقوى على صد الاجنبى عن ديارها وعقيدتها وثرواتها ٠

أما القائمون على المعاهد العلمية الدينية ، فقد التزموا موقفا سلبيا فى مواجهة التيارات الفكرية الاجنبية ، فقد رفضوا ادخال أى نوع من العلوم الحديثة فى مناهجهم ، بحجة أن ذلك لا يتفق مع « الاسلام » !! حرموا تدريس الجغرافيا والطبيعة والكيمياء ، والرياضة وغير ذلك من العلوم التى تقوم عليها اسس النهضة

= الاغلب من طلاب الافتاء والقضاء ، ووظائف التدريس وما شاكل ذلك ٠٠ لا ينظرون الى الدين الا من وجهة ما يجلب اليهم المعيشة ٠٠ فان مال بهم طلب العيش الى مخالفته لم يبالوا بذلك ، معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا ٠

وهؤلاء لا تختص مفاسد اعمالهم بذواتها ، ولكنها تتعدى الى اخلاق العامة وأطوارهم ٠ فهذا القسم أعظم الاقسام خطرا ، وأشدها ضررا فى العامة والخاصة ٠٠ وما افراده بقليل ٠

(تاريخ الامام جـ ٢ ص ٥٠٩ ـ ٥١٠ عن الفكر الاسلامي الحديث للاستاذ الدكتور محمد البهى ص ١٤١ ـ ١٤٢) ٠

هيأ هذا الوضع فى مجال التعليم الدينى المناخ لظهور التعليم المدنى ، كما ساعد المستعمر على تمكن خريجى المدارس المدنية ، من السيطرة على مقاليد السلطة وأزمة التوجيه الفكرى ٠ وقدم له فرصة ذهبية ـ انتهزها واستغلها بذكاء نادر ـ لتشويه صورة رجل الدين عند الجماهير ٠

الحديثة وهى التى تمثل احد عنصرى القـــــوة فى مواجهة الغزو الاجنبى (١) فنتج عن هذا ان فقدوا كثيرا من الاصوات المسلمة فى صفوف التيارين الآخرين ـ وهما التيار السياسى القائم على اساس القومية ، والتيار التربوى الذى اتخذ الاسلوب التربوى الحديث اساسا للنهوض بالامة ٠

فحين اشتدت معارضة رجال الدين للاستعمار فى اصـــلاح التعليم ، فرفضوا ادخال النظم الحديثـــــة فى معاهدهم ، وجد المستعمرون انصارا لهم ـ فى صفوف القوميين والمصلحين التربويين ـ فى دعوتهم الى انشاء مدارس حديثة على غرار المدارس الأوروبية واطلقوا عليها التعليم المدنى فى مقابل التعليم الدينى ، وبهذا وجد نظامين للتعليم فى المجتمع الاسلامى ، مدارس دينية واخرى مدنية ، جامعات تقوم على النظام الأوروبى(٢) وأخرى لا يدرس فيها سوى العلوم الدينية ٠ ولم يقتصر الامر عند هذا الحد ، بل استأثر خريجو الجامعات المدنية بكل الوظائف الحساسة فى الدولة وحصلوا على كل الامتيازات ، بينما حرم الآخرون من كل شىء

---

(١) فعليها تقوم القوة المادية فى المواجهة ، أما العنصر الآخر وهو القوة الروحية ، فالاسلام كفيل بغرسه فى نفوس المسلمين ، لو قامت التربية الاسلامية فى المجتمع على تخطيط سليم ٠

(٢) لازال هذا النظام المزدوج قائما فى المجتمعات الاسلامية على الرغم من رحيل القوات الاستعمارية عنها ، ومن الغريب انه موجود فى اقطار اسلامية ـ قلدت اقطار اسلامية اخرى ، واضطرت الى هذا التقليد نتيجة لجمود القائمين فيها على شــئون المؤسسات التعليمية الاسلامية ـ لم تقع يوما ما تحت تأثير مباشر لنفوذ استعمارى ، أى أن القوات الاجنبية لم تطأ أرضها فى عصــــور الاحتلال العسكرى ٠

٠٠ فلم يعينوا الا لتدريس مادتى الدين واللغة العربية ٠٠ وبقروش لا تسمن ولا تغنى من جوع ٠

دعم الاستعمار ــ وساعده فى ذلك مسلمون ، تربوا فى مدارسه ــ التعليم المدنى ٠ وحارب التعليم الدينى فانكمش ، وعجز عن رسالته كما ينبغى وبقى معزولا عن مواجهـــة التيارات الفكرية الحديثة ٠

ويرجع عدم قيامه بهذا الواجب أيضا الى :

جمود القائمين عليه ، وعدم فهمهم للايديولوجيات العالمية ، التى تموج بها المجتمعات الحديثة ٠

والى خضوعهم للحكام ــ وهم متعددو الاهواء فى تأييدهم هذا أو ذاك من المذاهب العالمية المختلفة ــ فلم يبينوا رأى الاسلام واضحا فى المذاهب الاقتصادية المعاصرة كالاشتراكية والرأسمالية ، بل اخضعوا أحكام الاسلام لهوى الحاكم ، فان كان اشتراكيا فالاسلام يدعو الى الاشتراكية ، وان كان معاديا للاشتراكية ، تجاوبت الاصداء فى أرجاء المعاهد العلمية تغنى على الوتر ٠

والى عجزه ــ أى نظام التعليم الدينى ــ عن ابداء الرأى فى حل المشاكل الاجتماعية ــ التى تعانيها الشعوب الاسلامية ــ من وجهة النظر الاسلامية وظل يدور فى دراساته حول مماحكات لفظية ، وشقشقات لغوية جافة ، فخلت الساحة للتفكير الأوروبى ــ أو الاسلامى المتأورب ــ فبسط نفوذه على عقلية الطبقة المثقفة ثقافة « مدنية » ، وهى الطبقة التى تتولى الســـــلطة ، وبهذا ضمن الاستعمار تنفيذ النظم الأوروبية فى مجتمع مسلم بواسطة حكام

مسلمين ومن هذه الطبقة أيضا خرج أصحاب الدعوات الهدامة ، لان ثقافتهم الغربية ـ وولاءهم للغرب ـ أضعفت صلتهم بالاسلام، وقطعت الوشائج ، التى تصلهم بعقيدتهم ٠

٤ ـ خلفـــاء الاســـتعمار :

أيقن المستعمر ان قواته سترحل يوما ما عن منطقة العالم الاسلامى . لان اخضاع المسلمين بقوة السلاح مطلب بعيد عن الواقع، فالمجتمع الاسلامى يرفض السيطرة المباشرة رفضا باتا ، ولذا فقد تضمنت خطط المستعمر خلق طبقة من المسلمين تتبنى آراءه ، وتدافع عنها ، وتتولى تنفيذ ما عجز هو عن تنفيذه ٠ وقد تضافرت عدة جهات على تكوين عقلية هذه الطبقة وتغذيتها بالآراء والافكار التى نادت بها فى المجتمع الاسلامى :

فقد أسهم المستشرقون فى غرس بعض المفاهيم الخاصة حول مبادىء العقيدة الاسلامية فى اذهانهم ، فأفهموهم عدم امكانية تطبيق بعض النظم الاسلامية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ومجالات العلوم المختلفة فى الحياة المعاصرة ، حيث التقدم فى التكنولوجيا ، والتعقيدات فى أنظمة الحكم والعلاقات الدوليـــة ، والانشطة الاقتصادية المعتدلة ، وأثر ذلك كله فى الحياة الاجتماعية بما يتناسب مع متطلبات العصر والبيئة الحضارية ٠

وعلمتهم المدارس الاجنبية ـ التى انشئت فى العالم الاسلامى ـ نظريات فى التاريخ والعلوم الاجتماعية ، تدور كلها حول مفاهيم تدفع الطالب الى اعتناق مبدأ :

« ان العصر لم يعد صالحا لتطبيق تعاليم الاسلام فى مجالى

الحكم والتوجيه ، فلم يبق له سوى العبادات الفردية المتعلقة بالله سبحانه وتعالى ، أى أن مجاله **المسجد فقط** » •

وأغرتهم المناصب الكبرى فى الدولة على تبنى افكار تتلاءم مع اتجاهات المستعمر ، اذ هو يملك الكلمة الاخيرة فى اختيار من يتولون المناصب الكبرى والحساسة فى الدولة ، ولم يفقد هذه الكلمة برحيل قواته عن العالم الاسلامى ، بل لازال محتفظا بها عن طريق تكوين الجمعيات ـ والسيطرة عليها ـ ذات الطابع العالمى ـ مثل الروتارى والماسونية ـ فى العالم الاسلامى ، وجمعيات التقريب بين الاديان والمذاهب ، وهى مؤسسات تضم الشخصيات صاحبة النفوذ فى الدولة •

ويمكن للمرء أن يتبين مدى هذا النفوذ ، عندما يلاحظ ان المتحمسين للاسلام يحال بينهم وبين الوصول الى هذه المناصب ، وان حدث أن وصل احدهم اليها فانما يرجع هذا الى اعتبارات أخرى ، فرضته على من يبدون انهم اصحاب الكلمة فى الدولة ، ثم لا تتركه هذه القوى المعادية للاسلام يتحرك بحرية فى مجـــال ترسيخ المعانى الاسلامية فى مجال عمله ، بل تحاصره ، وتضع أمامه العقبات التى تشل حركته وتظل تلاحقه حتى يقصى ـ أو ينسحب هو يائسا ـ عن المنصب تاركا الساحة لارباب الاستعمار وخلفائه أو لمن يسير فى فلكهم طمعا فى غنم مادى أو أدبى •

وأجبرهم الوضع الدولى للعالم الاسلامى على السير فى فلك احدى القوتين العالميتين ، ذلك ان البلاد الاسلامية تعانى من تخلف فى التكنولوجيا ، وضعف فى أنظمة الحكم ، وتفكك فى الترابط بينها، أضعف قواها فى مواجهة النفوذ الخارجى فخضعت له ، وسواء سمى هذا الخضوع صداقة ، أو تحالف أو تبادل اقتصادى ، فان ما يؤدى

اليه ، هو أن تحصر حركة الدول الاسلامية داخل هذا المعسكر أو ذاك ، مما يجعل كثيرا من هؤلاء الذين يتبنون افكار هؤلاء وأولئك يتبارون فى تبرير اتجاهاتهم السياسية ، وقل أن تجد فى العالم مؤسسات سياسية تلتزم خطا اسلاميا بعيدا عن تأثير القـــــوى الاجنبية ، سواء كان مباشرا أو غير مباشر ، لان نفوذ تلك القوى تغلغل فى صفوف جميع المؤسسات فى العالم الاسلامى حتى الدينية ، اذ دخل فى كثير منها ليوجهها – من وراء ستار – الى طريق ، فيه اضعاف العقيدة وتفكيك الوحدة الاسلامية وقد وضح هذا الدور فى القاديانية ، فقد كان ميرزا غلام أحمد – مؤسس هذه الطائفة – خاضعا للانجليز خضوعا كليا ! وقام بدور فى المجال الدينى يخدم مصالحهم ، دور لم يستطيعوا القيام به ، اذ لم يكن فى استطاعتهم تبنى دعوة تحريم الجهاد فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة اليه لدفع غارة الاستعمار عن بلادهم ، ولم يكن وضعهم يسمح بتبنى عقيدة مزج المسيحية بالاسلام ، كما دعا الى ذلك ميرزا غلام احمد ، ولهذا كانوا عونا له وسندا ، ولم لا ! فهو يمهد لهم طريقا عجزوا عن سلوكه ، وسيكون خليفتهم فى العالم الاسلامى ان هم رحلوا عنه ، خليفتهم فى توهين العقيدة الاسلامية عند المسلمين، وتمزيق وحدة المسلمين كى تظل كلمة الاستعمار هى المسموعة فى الساحة الدولية .

وهكذا يبدو جليا أثر الصراع الدينى فى ظهور القاديانية فى العالم الاسلامى .

الباب الثالث

الرجعـــــة

شاعت عقيدة الرجعة بين الطوائف الدينيـــة ، فقد اعتقـــد الكلدانيون برجعة هابيل ، الذى قتله أخوه قابيل ، وآمنت بعض الطوائف اليهودية بالرجعة واستدلوا على ذلك بأمرين :

احدهما :

حديث عزير ، اذ أماته الله مائة عام ثم بعثه ٠

ثانيهما :

حديث هارون عليه السلام ، اذ مات فى التيه ، وقد نسبوا قتله الى موسى وادعوا انه حسده ، لان اليهود كانت اليه أميل منها الى موسى ٠ واختلفوا

فمنهم من قال :
مات وسيرجع ٠
ومنهم من قال :
غاب وسيرجع (١)

---

(١) البهى : الجانب الالهى ج ١ ص ٨٨ ــ ٨٩

كذلك سيطرت فكرة عودة المسيح ثانية الى الارض على عقول الكتاب ، الذين أسهموا فى كتابة أسفار العهد الجديد ، لدرجة انهم حددوا موعدها ، فقد جاء فى هذه الاناجيل :

« ان المسيح دعا تلاميذه الاثنى عشر واعطاهم سلطانا على ارواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض ٠٠ وأوصاهم قائلا : ها انا ارسلكم كغنم وسط ذئاب ، فكونوا حكماء كالحيات . وبسطاء كالحمام ٠٠ ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا الى الاخرى » ٠

فانى الحق أقول لكم لا تكملون مدن اسرائيل حتى يأتى ابن الانسان » ـ المسيح ـ (١)

أى أن عودة المسيح ثانية الى الارض تحدث قبل أن يكمل تلاميذه التبشير فى مدن اسرائيل (٢) كذلك انتشرت عقيدة الرجعة بين جمهور المسلمين ، اذ آمنت بها معظم الفرق الشيعية ٠

● فمن الكيسانية :

● المختارية : اصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى ، كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار شيعيا وكيسيلنيا ٠ قال بامامة محمد ابن الحنفية ٠ بعد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما ٠٠ وكان السيد الحميرى ـ وهو من شيعة محمد بن الحنفية

---

(١) متى ١٠ : ١ ـ ٢٣

(٢) أحمد عبد الوهاب : المسيح فى مصادر العقيدة المسيحية ص ١٠٢

ـ يعتقد فيه ـ أى فى ابن الحنفية ـ انه لم يمت ، وانه فى جبل رضوى بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل وانه يعود بعد الغيبة فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا · وهذا هو اول حكم بالغيبة والعودة بعد الغيبة ، حكم به الشيعة وجرى ذلك فى بعض الجماعة حتى اعتقدوه دينا وركنا من اركان التشيع (١) ·

ومنهم من اعتقد أن عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى ـ الذى اعتقد البعض ان أبا هاشم بن محمد الحنفية أوصى بامامته ـ حيا لم يمت وسيرجع (٢) ·

● ومن الزيدية :

● الجارودية : قالوا بسوق الامامة من على الى محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسين ، وقد قتل فى المدينة على عهد المنصور · ومن قال منهم بامامته ، أى بامامة محمد بن عبد الله اختلفوا :

فمنهم من قال : انه لم يمت ، وهو بعد حى ، وسيخرج فيملأ الارض عدلا ·

ومنهم من أقر بموته ، وساق الامامة الى محمد بن القاسم ابن على بن الحسين (٣)

---

(١) الشهرستانى : جـ ١ ص ١٥٠ (٢) المصدر السابق ص ١٥٢
(٣)المصدر السابق ص ١٥٧ ـ ١٥٩

● ومن الامامية :

● الباقرية : أتباع محمد بن الباقر بن على بن زين العابدين ، وابنه جعفر الصادق • قالوا بامامتهما وامامة والدهما زين العابدين • الا ان منهم من توقف على واحد منهما وما ساق الامامة الى اولادهما • ومنهم من ساق • وانما ميزنا هذه الفرقة دون الاصناف المتشيعة التى نذكرها ، لان من الشيعة من توقف على الباقر ، وقال برجعته (١) •

● الناووسية : أتباع رجل يقال له : ناووس ، وقيل : نسبوا الى قرية ناوسا • قالت : ان الصادق حى بعد ، ولن يموت حتى يظهر فيظهر أمره • وهو القائم المهدى (٢) •

● الاسماعيلية الواقفة : قالوا : ان الامام بعد جعفر اسماعيل، نص عليه باتفاق من اولاده ، الا انهم اختلفوا فى موته فى حال حياة ابيه ، فمنهم من قال : لم يمت ، الا انه اظهر موته تقية من خلفاء بنى العباس •• ومنهم من قال موته صحيح ، والنص لا يرجع القهقرى ، والفائدة فى النص بقاء الامامة فى اولاده المنصوص عليه دون غيرهم ، فالامام بعد اسماعيل : محمد بن اسماعيل •• ثم منهم من وقف على محمد بن اسماعيل وقال برجعته بعد غيبته •• (٣) •

● الموسوية : فرقة واحدة قالت بامامة موسى بن جعفر نصا

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٥
(٢) أحمد بن حنبل ص ١٦٦
(٣) المصدر السابق ص ١٦٧ ــ ١٦٨

عليه بالاسم ثم ان موسى لما خرج واظهر الامامة ، حمله هارون الرشيد من المدينة فحبسه عند عيسى بن جعفر ، ثم أشخصه الى بغداد فحبسه عند السندى بن شاهك ٠٠ وقيل : ان يحيى بن خالد بن برمك سمه فى رطب فقتله وهو فى الحبس ٠٠ واختلفت الشيعة بعده ٠

فمنهم من توقف فى موته وقال : لا ندرى أمات أم لم يمت ٠

ومنهم من قطع بموته ٠

ومنهم من توقف عليه ، وقال : انه لم يمت وسيخرج بعد الغيبة (١) ٠

● الاثنا عشرية : هم الذين ساقوا الامامة فى اولاد موسى الكاظم حتى محمد بن الحسن العسكرى ، وهو الامام الثانى عشر المختفى ، وحدث اختلاف كبير بين أتباعه عقب اختفائه حول وجوده ابتداء وحول اختفائه ، فذهب فريق الى انه وجد فقال : ان الحسن كان له ابن وليس الامر على ما ذكروا انه مات ولم يعقب بل ولد له ولد قبل وفاة ابيه بسنتين ، فاستتر خوفا من جعفر وغيره من الاعداء ، واسمه محمد وهو الامام ، القائم الحجة والمنتظر (٢)

● ومن الغالية :

● السبائية : أصحاب عبد الله بن سبأ ، الذى قال لعلى كرم الله وجهه : أنت أنت ، يعنى أنت الاله ، فنفاه الى المدائن ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٧١

زعموا انه كان يهوديا فأسلم وكان فى اليهودية يقول فى يوشع بن نون وصى موسى عليهما السلام مثل ماقال فى على رضى الله عنه ، وهو أول من اظهر القول بالنص بامامة على رضى الله عنه ، ومنه انشعبت اصناف الغلاة ٠

زعم أن عليا حى لم يمت ، ففيه الجزء الالهى ، ولا يجوز أن يستولى عليه وهو الذى يجيىء فى السحاب ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وانه سينزل الى الارض بعد ذلك فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا ٠٠ (١) ٠

● المغيرية : اصحاب المغيرة بن سعيد العجلى ٠ ادعى أن الامامة بعد محمد بن على بن الحسين : محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن الخارج ٠٠ بالمدينة ، وزعم انه حى لم يمت ٠٠ ولما أن قتل المغيرة اختلف اصحابه ،

فمنهم من قال بانتظاره ورجعته ٠٠

ومنهم من قال بانتظار امامة محمد ، كما كان يقول هـــو بانتظاره ٠ وقد قال المغيرة بامامة أبى جعفر محمد بن على رضى الله عنهما ٠ ثم غلا فيه وقال بألوهيته فتبرأ منه الباقر ولعنه ٠ وقد قال المغيرة لاصحابه : انتظروه ، فانه يرجع ، وجبريل وميكائيل يبايعانه بين الركن والمقام (٢) ٠

* * *

كما آمن بظهور المهدى — وينتظر خروجه حتى الآن — جمهور

---

(١) احمد بن حنبل ص ١٧٤

(٢) المصدر السابق ص ١٧٦ — ١٧٨

أهل السنة استنادا الى احاديث وردت فى كتب السنة منها :

عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المهدى منا آل البيت يصلحه الله فى ليله » (١) ٠

وعن ابى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : خشينا ان يكون بعد نبينا حدث فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يخرج المهدى فى أمتى خمسا ، أو سبعا ، أو تسعا ٠٠ قال : قلت : أى شىء ؟ قال : سنين ٠ ثم قال : يرسل السماء عليهم مدرارا ، ولا تدخر الارض من نباتها شيئا ، ويكون المال كدوسا ٠ قال : يجيىء الرجل اليه فيقول : يا مهدى ، اعطنى اعطنى ! قال فيحثى له فى ثوبه ما استطاع ان يحمل » (٢)

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أبشركم بالمهدى ، يبعث فى أمتى على اختلاف من الناس وزلازل ، فيملأ الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، ويرضى عنه ساكن السماء وساكن الارض ويملأ الله قلوب أمة محمد غنى ، فلا يحتاج أحد الى أحد ، فينادى مناد ، من له فى المال حاجة : قال : فيقول رجل : أنا ، فيقال له ائت السادن ــ يعنى الخازن ــ فقل له : قال لك المهدى اعطنى ! قال : فيأتى السادن ، فيقول له . فيقال له . احتثى ، فيحتثى ، فاذا احرزه قال : كنت أجشع أمة محمد

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٨٤

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢١ ــ ٢٢ ، والترمذى جـ ٣ ص ٣٤٣

نفسا ، أو عجز عنى ما وسعهم ، قال ، فيمكث سبع سنين ، أو ثمان سنين أو تسع سنين ، ثم لا خير فى الحياة أو فى العيش بعده (١) .

وعن علقمة عن عبد الله قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ اقبل فتية من بنى هاشم ، فلما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم اغرورقت عيناه ، وتغير لونه . قال : فقلت : مانزال نرى فى وجهك شيئا تكرهه . فقال : انا أهل بيت . اختار الله لنا فى الآخرة على الدنيا ، وان اهل بيتى سيلقون بعدى بلاء وتشريدا وتطريدا حتى يأتى قوم من قبل المشرق ، معهم رايات سود (٢) فيسألون الخير ، فلا يعطونه ، فيقاتلون ، فينصرون فيعطون ما سألوا ، فلا يقتلونه ، حتى يدفعوها الى رجل من أهل بيتى فيملؤها قسطا كما ملؤوها جورا فمن أدرك ذلك منكم، فليأتهم ولو حبوا على الثلج (٣) .

---

(١) ابن حنبل جـ ٣ ص ٥٢

(٢) كان الشيعة جادين فى السعى لجعل الخـــلافة فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم من ذرية على رضوان الله عليه فوضعوا الاحاديث تمهيدا لذلك ، ففطن لهذا الامر العباسيون فاستمالوا بعضهم ، ورأى أبو مسلم الخراسانى وعصبيته أن آل على يغلب عليهم الزهد ، وان بنى العباس كبنى امية فى الطمع فى الملك ، فعمل لهم ، توسلا بهم الى تحويل عصبية الخلافة الى الفرس ، تمهيدا لاعادة الملك والمجوسية ، وحينئذ وضعت أحاديث المهدى ، مشيرة الى العباسيين مصرحة بشاراتها – وهو السواد (تفسير المنار جـ ٩ ص ٤٦٢) .

(٣) ابن ماجه : ٤٠٨٢

تدل هذه النصوص على أن عقيدة ظهور المهدى انتشرت بين كل المذاهب الاسلامية ، السنى منها والشيعى ، غير أن عناصر تكوينها مختلفة ، فقد ظهرت أولا عند الشيعة كعقيدة رجعة • اذ اعتقدت بعض الطوائف الشيعية برجعة على رضى الله عنه ، ثم تحولت الى اعتقاد فى ظهور الامام المختفى – أو رجعته – الذى سيملأ الارض عدلا بعد أن ملئت جورا •

أما عند أهل السنة فظهرت بادىء ذى بدء اعتقادا فى ظهور رجل من اهل البيت ، يقيم العدل فى الارض ، ويمحو الظلم •

ولا شك أن بين العقيدتين اختلافا ، فالشيعة تؤمن برجعة امام مات أو اختفى أما أهل السنة فيؤمنون بظهور رجل ، وجوده عادى ، اذ يولد من أب وأم ، وقد تكون حياته عادية ، الى ان يظهر بالدعوة فيؤيده الله لتتحقق مشيئته فى القضاء على الظلم واقامة العدل بين الناس لكنهما يشتركان فى الدافع النفسى لهذه العقيدة ، فالظلم واقع على كليهما :

فقد تعرض الشيعة لاضطهاد الامويين ، ثم العباسيين ، الذين لم يرحموا أئمتهم ، ولم يتركوا المشايعين لم يستقرون فى مكان ، بل تعقبوهم ، واعملوا السيف فى رقابهم ، وزجوا من نجا منهم من السيف فى غياهب السجون ، فضاقت الحياة بآل البيت واتباعهم فتبخرت آمالهم فى الهواء ، فيئسوا من قدرتهم على الاستيلاء على السلطة ، وبلغ اليأس بهم درجة الاستسلام لاحلام اليقظة ، فهيأت لهم نفوسهم اليائسة من الخروج من الواقع الاليم – صورا وردية ، صور انقاذهم مما هم فيه وتمثل ذلك فى ظهور شخص ، له من القوة ما يفوق قوى الدولة ، التى أنهكتهم ، ولن يكون ذلك الا اذا كان مؤيدا ، من الله ، الذى أمر رسوله ذلك بقوة اهلكت أهل الشر جميعا ، ذلك الشخص : هو المهدى •

أمدتهم هذه الصورة بالامل ــ والانسان اذا كان فى محنة ، تعلق بالآمال حتى ولو كانت أحلام اليقظة مصدرها ــ فتعلقوا به وآمنوا بأنه سيتحقق ، فصار ظهور المهدى عقيدة لهم ، يتصيدون الادلة على صحتها من هنا وهناك .

أما أهل السنة ، فقد تعرضوا أيضا لظلم ولاة الأمويين وعسفهم وجورهم فتمنوا الخلاص منهم ، فلما طالت فترة حكمهم ، ظهرت امانيهم فى الاعتقاد فى ظهور من يخلصهم من هذا الظلم ، ولهذا نجد احاديث المهدى تركز على ناحيتين ، هما الآفتان الرئيسيتان اللتان تعانى منهما المجتمعات الانسانية ، اولاهما : الظلم والفقر اذ يوعدون فى هذه الاحاديث :

بأن المهدى سيملأ الارض عدلا بعد ان ملئت جورا .

وبأن المال سيفيض عن الحاجة ، فلا يحتاج احد الى احد .

وأحاديث المهدى كلها آحاد ، ومما يزيد فى ضعف حجيتها أن البخارى ومسلم ــ وهما اكثر جامعى الاحاديث حرصا فى التحقيق والتدقيق ــ لم يأتيا بحديث واحد عن المهدى فى صحيحيهما مما يجعلنا نحكم بأن ظهور المهدى ليس من المسائل المجمع عليها ، اذ لم يرد ذكره فى القرآن والاحاديث التى وردت فيــــه آحادا . . ومتعارضة (١) فمنكره ليس كافرا .

---

(١) « .. وأما التعارض فى أحاديث المهدى ، فهو أقـــوى وأظهر ، والجمع بين الروايات فيه أعسر ، والمنكرون لها اكثر ، والشبه فيها أظهر ، ولذلك لم يعتد الشيخان بشىء من رواياتها فى صحيحيهما » تفسير المنار ج ٩ ص ٤٥٩

كما أن عقيدة الرجعة ليست من المسائل المجمع عليها عند الشيعة ، فقد انكرها محمد الباقر حين سئل :

هل منكم أهل البيت من يعتقد بالرجعة ؟

قال : لا (١) ٠

كذلك أنكرها زيد بن على بن زين العابدين (الذى نسبت اليه طائفة الزيدية) وان أقر ظهور المهدى بالمعنى المفهوم عند أهل السنة ٠ اذ كان يعتقد ان المهدى : هو الخارج على الظالم ، المجدد الفقهى ، وهو الذى يخرج مجاهدا فى سبيل الله ليملأ الارض عدلا (٢) ٠

***

● أما رجعة عيسى عليه السلام فيؤمن بها جمهور أهل السنة استنادا الى :

اولا : قول الله تعالى :

« وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته » (٣) ٠

فأرجعوا الضمير فى « به » و « موته » الى عيسى ٠ والمعنى ما من احد من أهل الكتاب : يهودييهم ونصرانييهم الا ليؤمنن بعيسى قبل أن يموت عيسى ٠

---

(١) النشار ص ١٣٨ (٢) المصدر السابق ص ١٦٥

(٣) النساء : ١٥٩

قالوا أخبرت هذه الآية أن أهل الكتاب سيؤمنون بعيسى قبل أن يموت ، وهم لم يؤمنوا به الى الآن ٠ على الوجه الذى طلب منهم ٠ فلابد ان يكون عيسى الى الآن حيا ، ولابد أن يتحقق هذا الايمان به قبل موته وذلك انما يكون عند نزوله آخر الزمان » ٠

وقوله تعالى :

« **وانه لعلم للساعة فــلا نمترن بها** » (١) ٠

فقد فسروا هذه الآية بأن نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان من علامات الساعة ٠

وثانيا : ما ورد فى السنة :

فقد روى عن ابى هريرة رضى الله عنه انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » (٢) ٠

وروى برواية أخرى فى كتاب الانبياء :
« والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض

---

(١) شلتوت : ص ٧١ ، والآية من سورة الزخرف : ٦١
(٢) فتح البارى جـ ٤٠ ص ١١٤

المال حتي لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها » • ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا ان شئتم : « **وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** » (١) •

● غير أن هذا الرأى فى تفسير الآيتين ليس مجمعا عليه ، فقد ورد فى تفسير الآية رأى آخر ، رواه ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس •

لا يموت يهودى ولا نصرانى حتى يؤمن بعيسى • فقال عكرمة أرأيت ان خر من بيت ، أو احترق ، أو أكله السبع ؟ قال : لا يموت حتى يحرك شفتيه بالايمان بعيسى •

قال النووى :

معنى الآية على هذا : ليس من أهل الكتاب أحد يحضره الموت ، الا آمن عند المعاينة قبل خروج روحه بعيسى،وأنه عبدالله، وابن أمته ، ولكن لا ينفعه هذا الايمان فى تلك الحالة ، كما قال تعالى : « **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت ، قال : انى تبت الآن** » (٢) ، قال : وهذا المذهب أظهر لان الاول يخص الكتابى ، الذى يدرك نزول عيسى ، وظاهر القرآن عمومه فى كل كتابى فى زمن نزول عيسى وقبله (٣) •

أما الرأى الآخر الذى ورد فى تفسير الآية الثانية فهو :

---

(١) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٩٠ ــ ٤٩١
(٢) النساء : ١٨ (٣) فتح البارى جـ ٦ ص ٤٩٢ ــ ٤٩٣

ان عيسى علم للساعة ، أى ان حدوثه من غير أب دليل على امكان الساعة ٠

أو أن باحيائه الموتى دليل على امكان البعث والنشور ٠

ومن هذا يتبين أن احتمال الآيتين لمعنى آخر ، غير نزول عيسى ، دليل على انهما ليستا نصين قاطعين فى نزوله عليه السلام ٠

أما الاحاديث التى اخبرت بنزول عيسى عليه السلام ، فقد قالوا فيها : انها آحاد ، ونزول عيسى من الامور العقدية ، التى لا تثبت الا بالقرآن أو بالحديث المتواتر فاذا انتفى الاول لوجود رايين فيما ورد فيه من آيات حول هذا الموضوع ، ولم يتحقق الثانى لان أحاديث نزول عيسى ليست متواترة ، فقد انتفت قطعية دلالة هذه الاحاديث على نزوله ، وقد فسر الشيخ شلتوت القول فى هذا حيث يقول :

« وموجز ما نقول فيها : انها لا تخرج عن كونها احاديث آحاد ، واحاديث الآحاد مهما صحت لا تفيد يقينا يثبت عقيدة يكفر منكرها » ٠

وانه ليؤسفنى ان ارى قوما تظاهروا بالانتساب الى الدين ، والغيرة على احاديث الرسول استباحوا لانفسهم – فى سبيل اغراضهم الدنيا – ان يصطنعوا كل اساليب التلبيس والتمويه فى شأن احاديث عيسى ، التى لا يمكن ان يكون منها متواترا حتى على أوسع الآراء فى تحققه ، وهى مع آحاديتها يكثر ويشتد فى معظمها ضعف الرواة واضطراب المتون ، ونكارة المعانى ، فتراهم يقولون : هى متواترة قد رواها فلان وفلان من الصحابة والتابعين ، وذكرت

فى كتاب كذا وكتاب كذا من كتب المتقدمين ، فاذا رأوا فى بعضها ضعفا او اضطرابا ، او نكارة ، حاولوا التخلص من ذلك ، فقالوا : ان الضعيف منها منجبر بالقوى ، وان العدالة لا تشترط فى رواة المتواتر . وهكذا يخلعون عليها ثوبا مهلهلا من القداسة ، لا رغبة فى علم ، ولا غيرة على حق ، ولكن مكابرة وعنادا ، واصرارا على التضليل ، وليقال على السنة العامة ، وأشباه العامة : انهم حفاظ وانهم محدثون » (١) .

أما الاجماع الذى استدل به جمهور علماء المسلمين على نزول عيسى عليه السلام فلم يسلم من النقد ، اذ قيل فيه ان الاجماع فى الامور الغيبية لا يتحقق ، لان المجمعين لا يعلمون ما اجمعوا عليه ، الا من حيث هو منقول عمن يطلعه الله على الغيب ، فهو راجع الى المنقول ، يقول الشيخ شلتوت :

« ان الذين ذهبوا الى حجية الاجماع لم يتفقوا على شىء يحتج به سوى الاحكام الشرعية العملية ، اما الحسيات المستقبلة من أشراط الساعة وأمور الآخرة فقد قالوا : ان الاجماع عليها لا يعتبر من حيث هو اجماع ، لأن المجمعين لا يعلمون الغيب ، بل يعتبر من حيث هو منقول عمن يطلعه الله على الغيب ، فهو راجع الى الاختبارات فيأخذ حكمها وليس من الاجماع المخصوص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الحسى المستقبل لا مدخل للاجتهاد فيه ، فان ورد به نص فهو ثابت به ، ولا احتياج الى الاجماع وان لم يرد به نص فلا مساغ للاجتهاد فيه » .

وعلى هذا تخضع جميع الاخبار ــ التى تتحدث عن اشراط

---

(١) شلتوت : ص ٧٧ ــ ٧٨

الساعة ، ومن بينها نزول عيسى – الى مبدأ قطعية النصوص وظنيتها فى الورود والدلالة (١) ٠

ثم يبين أن هذه المسألة مختلف فيها قديما وحديثا :

أما قديما فقد نص على ذلك ابن حزم فى كتابه ، مراتب الاجماع ٠٠ حيث يقول :

« واتفقوا على انه لا نبى مع محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا بعده ابدا ، الا انهم اختلفوا فى عيسى عليه السلام : أيأتى قبل يوم القيامة أم لا ؟ وهو عيسى ابن مريم المبعوث الى بنى اسرائيل قبل مبعث محمد عليه السلام » ، كما نص عليه أيضا القاضى عياض فى شرح مسلم ، والسعد فى شرح المقاصد ٠

وأما حديثا : فقد قرر ذلك كل من الاساتذة المغفور لهم : الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والاستاذ الاكبر الشيخ المراغى ٠

فالشيخ محمد عبده يقول فى تفسيره آية آل عمران :

« **اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى** » (٢)

ان للعلماء هنا طريقتين :

احداهما وهى المشهورة : انه رفع بجسمه حيا ، وانه سينزل فى آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ، ثم يتوفاه الله ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٧٩ – ٨٠ (٢) آل عمران : ٥٥

والطريقة الثانية : ان الآية على ظاهرها ، وان التوفى على معناه الظاهر المتبادر منه ، وهو الاماتة العادية ، وأن الرفع يكون بعده ، وهو رفع الروح ٠٠ الخ ٠

ثم يذكر :

« ان لاهل هذه الطريقة فى أحاديث الرفع والنزول تخريجين :

أحدهما : انها آحاد تتعلق بأمر اعتقادى ، والامور الاعتقادية لا يؤخذ فيها الا بالقطعى وليس فى الباب حديث متواتر ٠

وثانيهما : تأويل نزوله وحكمه فى الارض بغلبة روحه ، وسر رسالته على الناس ، وهو ما غلب فى تعليمه من الامر بالرحمة والمحبة والسلم ، والاخذ بمقاصد الشريعة ، دون التوقف عند ظواهرها ، والتمسك بقشورها دون لبابها (١) ٠

ولما تلقى السيد رشيد رضا سؤال حول هذا الموضوع (٢) ، اجاب السائل بعرض للآيات وآراء المفسرين فيها ثم قال : « وجملة القول انه ليس فى القرآن نص صريح فى ان عيسى رفع بروحه وجسده الى السماء حيا حياة دنيوية بها ، بحيث يحتاج بحسب سنن

---

(١) تفسير المنار ج ٣ ص ٣١٦ – ٣١٧

(٢) « ونص السؤال : ما حال سيدنا عيسى الآن ؟ واين جسمه من روحه ؟ وما قولكم فى الآية « **انى متوفيك ورافعك الى** » وان كان حيا يرزق كما كان فى الدنيا فمم يأتيه الغذاء الذى يحتاج اليه كل جسم حيوانى كما هي سنة الله فى خلقه ؟

الله تعالى الى غذاء ، فيتوجه سؤال السائل عن غذائه ، وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء ، وانما هى عقيدة أكثر النصارى ، وقد حاولوا فى كل زمان منذ ظهور الاسلام بثها فى المسلمين (١) ٠

أما المغفور له الاستاذ الاكبر الشيخ المراغى ، فقد أجاب عن سؤال اجابة جاء فيها : « ليس فى القرآن الكريم نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه وروحه ، وعلى انه حى الآن بجسمه وروحه ٠ وقول الله سبحانه : « **اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا** » (٢) الظاهر منه انه توفاه واماته ، ثم رفعه ، والظاهر من الرفع بعد الوفاة انه رفع درجات عند الله ، كما قال فى ادريس عليه السلام : « **ورفعناه مكانا عليا** » (٣) ٠ وهذا الظاهر ذهب اليه بعض علماء المسلمين فهو عند هؤلاء ، توفاه الله وفاة عادية ، ثم رفع درجات عنده فهو حى حياة روحية كحياة الشهداء ، وحياة غيره من الانبياء ٠ لكن جمهور العلماء على انه رفعه بجسمه وروحه فهو حى الآن بجسمه وروحه ، وفسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذى يسوغ تفسير القرآن بها ، ثم قال « ولكن هذه الاحاديث لم تبلغ درجة الاحاديث المتواترة التى توجب على المسلم عقيدة ، والعقيدة لا تجب الا بنص من القرآن ، أو بحديث متواتر » ٠ ثم قال : وعلى ذلك فلا يجب على المسلم أن يعتقد أن عيسى عليه السلام حى بجسمه وبروحه ، والذى يخالف فى ذلك لا يعد كافرا فى نظر الشريعة الاسلامية » ٠

---

(١) شلتوت ٨١ عن الجزء العاشر من المجلد الثامن والعشرين للمنار ٠

(٢) آل عمران : ٥٥ (٣) مريم : ٥٧

ثم يعقب الشيخ شلتوت على ذلك فيقول :

« هذه نصوص صحيحة يقرر بها هؤلاء العلماء قديما وحديثا أن مسألة عيسى مسألة خلافية وان الآيات المتصلة بها ظاهرة فى موته عليه السلام موتا عاديا ، وان الاحاديث الواردة فيها احاديث آحاد لا تثبت عقيدة ، وهى مع هذا تحتمل التأويل وانه لا يكفر المسلم بانكار رفع المسيح أو نزوله » (١) ٠

لم يستطع الرأى المعارض لعودة المسيح عليه السلام أن يشق طريقا له بين جمهور المسلمين ، فظل محصورا بين أشخاص معدودة من العلماء الذين اعتنقوه ، أما جمهورهم ومن ورائهم جميع المسلمين ــ فقد آمنوا بعودته ، مستدلين بما ورد فى القرآن الكريم من آيات تحدثت عن نجاته من اليهود ، ورفعه الى السماء ، وأحاديث اخبرت بأنه سينزل فى آخر الزمان ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الخ ٠

ولم يرجع شبه الاجماع على عودة المسيح الى ما استدل به المؤيدون من آيات واحاديث فقط ــ لانها لا تدل بالنص القاطع على ذلك كما سبق بيانه ــ بل الى استعداد النفس البشرية لاعتناق هذا الرأى ، ذلك ان الانسان يعتقد فى عودة من اختفى عن الحياة العادية فى حالتين :

الاولى : حبه الشديد له ٠

فالاعتقاد فى رجعة انسان معين ٠٠ تنم عن تقدير المعتقد لهذا الانسان المعين وعن حبه له ٠ بل عن شدة الوله به ٠ وعن هذا

---

(١) المصدر السابق ص ٨١ ــ ٨٢

الحب الشديد والرغبة المتزايدة فى الحرص على بقائه ولقائـــه ومحادثته ينشأ شك المحب فى قتل من يحبه أو موته ، لو سمع بأنه قتل أو مات (١) ٠ فاذا اصطدم بالحقيقة الواقعة ، وهى انه لم يعد يراه يقظة ولم يعد يتحدث اليه مشافهة بعد فوات وقت طويل على ذلك ، لم يصدق بموته ، او بقتله مع ذلك ويؤمن بغيبته فحسب ٠ ثم بناء على ذلك بأوبته ورجعته يوما ما ، طالت فترة الغيبة أم قصرت ٠ لان الحب القوى يخلق أملا قويا ، قد يتعارض مع واقع الامر والنفس موزعة بين الامل القوى والواقع الذى لا مراء فيه ، لا تركن الى طرف منهما وهذه حال الشك ٠

لكن عيشة النفس فى الامل أهنأ وأرغد ، لأن متعتها فيه اطول ، ولانه ملجؤها عند فرارها من الواقع ٠ ولهذا ترجح البقاء فيه عند النزول الى عالم الحقيقة وهذا هو حال ترجيح أحد طرفى الشك ٠ وهو هنا ترجيح غيبة المحبوب دون الاعتقاد بقتله أو موته الذى يمثله الواقع ٠ ثم يصبح هذا الترجيح عقيدة بالغيبة ٠

فاذا اطمأنت النفس عندئذ الى غيبة المحبوب ، تحول هذا الاطمئنان الى أمل قوى فى عودته ، لانها شديدة الحرص قبل على رؤيته يقظة ومشافهة فى الحديث ٠ ثم يتحول هذا الامل بعد مرور فترة أو فترات عليه الى عقيدة برجعته ٠

فاذا ما أصبحت الرجعة عقيدة للنفس ، تخيلت وقتها فحددته ، وفى أول الأمر تقصر الفترة التى تتوقع بعدها الآية ، لأن الامل القوى

---

(١) وعمر رضى الله عنه فيما يروى عنه عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من انه قال : « من قال أن محمدا قد مات قتلته بسيفى هذا » ٠ لم يقل غير ما تمليه الطبيعة الانسانية ٠

يوحى بذلك ٠ فاذا أشرفت الفترة المحددة على النهاية ، أو انتهت بالفعل ومع ذلك لم يعد المحبوب الذى اعتقد بعودته ، أول اصحابه فى الوقت ، وشرحوه بغير المألوف والمتعارف ، حتى يستطيعوا التوفيق بين الحقيقة والعقيدة فاليوم فى نظرهم ليس كأيامهم العادية والسنة ليست كتلك السنين التى تمر بالانسان العادى ٠

وبهذا نرى الرجعة والاعتقاد بها مرحلة أخيرة فى طريق تبتدئه النفس بالحب وتتوسطه بالامل ٠ ومن هنا كانت عقيدة الرجعة تعتبر من الظواهر النفسية العامة التى لا تختص بها جماعة انسانية ٠ دون جماعة أخرى ، وظهورها فى الجماعة يتوقف فقط على محبين ولهين لشخصية عزيزة فيها (١) ٠

وينطبق هذا على الذين آمنوا برجعة الامام الغائب من الشيعة وعلى من آمن من النصارى بالرجعة الثانية لعيسى عليه السلام ، كما جاء فى العهد القديم الموجود الآن بين أيدى النصارى ٠

الثانية : الامل فى نصر ساحق على الاعداء ٠

يشيع هذا الامل بين كل افراد المجتمعات الانسانية ، ولكن لا يترتب عليه ظهور عقيدة الرجعة فى المجتمع ، الا اذا كان الصراع قائما على اساس دينى ، فالمطالبون بحقهم المستند — فى رأيهم — على نصوص شرعية ، يعتقدون انهم مؤيدون من السماء وان النصر حليفهم ، فهم قادرون على سحق الاعداء ، وسيسيطرون على مقاليد الامور فى الدولة ٠ فاذا ما انتكست جبهتهم ، فضاع سلطانهم وتبددت قواهم ، وأصبحوا عاجزين عن مواجهة القوة الاخرى ،

---

(١) الجانب الالهى : ج ١ ص ٩٢ — ٩٤

دفعهم الامل فى النصر الى الاعتقاد فى ظهور امام له من القوة ما تفوق هذه القوة المادية ، وعندها سيكون النصر حليفهم · فيسحقون أعداءهم ·

مرت الشيعة بهذه المرحلة ، اذ اضطهدهم الامويين ، ثم العباسيون ، فقتلوا أئمتهم ، وشردوا أتباعهم · ولما ضاقت بهم الارض ، عاشوا فى أمل تخيلوه ، ثم آمنوا بوقوعه ، فوضعوا الاحاديث التى تنبىء بما يجول فى نفس مضطهدة · اذ جاء فى احاديثهم ان الامام سيظهرهم على من عداهم فآمنوا برجعته ليخلصهم من هذا الاضطهاد ، كما شاعت أيضا عقيدة ظهور المهدى بين أهل السنة ، لانهم ربطوا خلاصهم من الاستبداد والظلم بظهوره ، ولهذا نرى أن احاديث المهدى تتحدث عن انه سيملأ الارض عدلا ، كما ملئت جورا وظلما ·

***

اجتاحت العالم الاسلامى فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حالة من اليأس فى النصر على المستعمر الأوروبى ، اذ بلغت سيطرته على البلاد الاسلامية ذروتها فى ذلك التاريخ ، فتوجه المسلمون الى مصدر القوة التى لا تقهر ، الى الله سبحانه وتعالى ، ولما كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هى خاتم الرسالات السماوية ، ـ فلن يبعث رسول برسالة أخرى ـ ترقب المسلمون ظهور المهدى المؤيد من الله كى يخلصهم من هذا الكابوس الاستعمارى ، كما توقعوا قرب نزول المسيح عليه السلام ، ليحكم بالقرآن الكريم ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ·· و ·· و ·· الخ · فاستقبل الانجليز هذا الوضع النفسى للمسلمين فدفعوا بعميل لهم ـ هو ميرزا غلام احمد ـ الى ساحة الدعوة الدينية ، ليحد من تيار الدعوة الى الجهاد ضد المستعمر ـ لانه فسره على نحو يبطل فرضيته ـ فادعى انه هو المسيح الذى أخبر بنزوله ، وينتظره

المسلمون ليخلصهم من الاستبداد ، وليمكن لدين الله فى الارض ٠ ومما قاله ميرزا فى هذا الصدد :

« أيها الناس : اذا كنتم اصحاب ايمان ودين فاحمدوا الله واسجدوا لله شكرا ان العصر الذى قضى آباؤكم حياتهم فى انتظاره ولم يدركوه ، وتشوقت اليه ارواح ولم تسعد به قد حل وادركتموه واليكم وحدكم ان تقدروا هذه النعمة ، وتنتهزوا هذه الفرصة ، ساكرر ذلك ، ولا أفتأ اذكره اننى ذلك الرجل الذى ارسل لاصلاح الحق ليقيم هذا الدين فى القلوب من جديد ٠٠ ان لى شبها بفطرة المسيح ليدك العقيدة الصليبية ، فقد ارسلت لكسر الصليب وقتل الخنازير ٠٠ » (١)

كان غرض الانجليز من دفعه الى الجهر بهذه الدعوة أن يؤمن الناس به ويلتفوا حوله ، فيكون زمام الامر بأيديهم — أى الانجليز — لانهم سوف يملون على زعيم المسلمين الروحى — لو آمن الناس بصدق ادعائه بأنه المسيح — ما يريدون ٠٠ وبذلك تتحقق سيطرتهم على المسلمين ، اذ بعد ما فشلت محاولة الاستعمار فى ابعاد المسلمين عن الاسلام ، سلك اسلوب تبنى الحركات الاسلامية المنحرفة — بل هو الذى دفع بعض الاشخاص الى انشائها — ليوجهها نحو الهدف الذى يريده وكانت القاديانية ، هى احدى هذه الحركات ، تبناها الانجليز ، وأوعزوا الى مؤسسها ليدعو الى مزج الاسلام بالمسيحية ، كى تضعف مقاومة المسلمين للمستعمر المسيحى ، فوجد ميرزا فى عقيدة رجعة عيسى عليه السلام خطوة اولى على هذا الطريق ، ثم حاول مزج الاسلام بالمسيحية فى تعاليمه ، ودفعه الى ذلك أيضا ، ما شاهده فى الدين الهندوسى من مزج للآراء المختلفة

---

(١) القاديانى والقاديانية ص ٥٧ — ٥٩

المصادر ، فسار على هذا الدرب مقلدا ، وللانجليز معاونا .

لو لم توجد عقيدة رجعة عيسى عليه السلام عند المسلمين ما ادعى ميرزا غلام احمد انه المسيح ، ولو لم ينشأ قريبا من المجتمع الهندوسى ما حاول مزج الاسلام بالمسيحية ، ولو لم يوجد الاستعمار الانجليزى فى الهند ، ما نحا ميرزا غلام أحمد فى دعوته نحو هذا الاتجاه لتأويل النصوص الاسلامية تأويلا متعسفا ارضاء للاستعمار .

أهم المراجـــع

● فتح البارى بشرح صحيح البخارى
احمد بن على بن حجر العسقلانى
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى – محب الدين الخطيب –
المطبعة السلفية

● صحيح مسلم
للامام ابى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى – الحلبى عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م

● سنن ابن ماجه
للحافظ ابى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى – الحلبى عام ١٣٧٢هـ/١٩٥٢ م

● سنن الترمذى
للامام الحافظ ابن عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى
تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف المدنى – عام ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤ م

● مسند ابن حنبل
للامام أحمد بن حنبل
بيروت – دار صـــادر عام ١٣٨٩هـ/١٩٦٩ م

● تفسير المنار
للشيخ رشيد رضا
القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠ م

● تفسير المراغى
للشيخ أحمد مصطفى المراغى
القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٣ م

- نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام
  على سامى النشار ـ القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨ م
- الجانب الالهى من التفكير الاسلامى
  للدكتور محمد البهى
  القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٨ م
- الفتاوى
  للشيخ محمود شلتوت
  القاهرة طبعة دار القلم ـ بدون تاريخ
- المسيح فى مصادر العقائد المسيحية
  أحمد عبد الوهاب ـ القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨ م
- الاسلام قوة الغد العالمية « باول شمتز »
  ترجمة : الدكتور محمد شامة :
  القاهرة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤ م
- الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى
  للدكتور محمد البهى
  بيروت : ١٩٧٠ م
- القاديانى والقاديانية
  أبو الحسن على الحسنى الندوى
  الدار السعودية للنشر جدة ١٣٩١هـ/١٩٧١ م
- ما هى القاديانية
  أبو الأعلى المودودى
  دار القلم ـ الكويت ـ بدون تاريخ .

محتويات الكتاب

الموضـــوع صفحة

رقم الايداع ١٩٨٠/١٥٦٠

الترقيم الدولى ٩٧٧

مطبعة
دار أسامة للطبع والنشر
عطفة سكات - ش يعقوب بالناصرية